بلاغة الأنبياء

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الأنبياء، الفصاحة

أ . م. د. صالح ملا عزيز

أربيل / جامعة صلاح الدين – كلية التربية

Dr_salih99@yahoo.com

الملخص

هذه الدراسة تكشف أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا على مستوى عالٍ من بلاغة الكلام وفصاحة اللسان في الدعوة إلى الله، وعماد هذا الكشف ما سطره القرآن الكريم من محاوراتهم مع أقوامهم وثناء الله سبحانه وتعالى عليهم بهذه الخصيصة، وما أشار إليه الرسول الأكرم ﷺ في أحاديثه الشريفة.

يتكون البحث من ثلاثة محاور، يقف المحور الأول على تقدير سحر البيان في الفكر الانساني ليثبت أن الاهتمام بقضية البيان ضارب بجذوره في الثقافات الانسانية المختلفة، ويعقبه المحور الثاني ليدرس أهمية البلاغة في الدعوة إلى الله وأبعادها النفسية وآثارها الاجتماعية وتأصيلها الشرعي، ثم يأتي المحور الثالث بعنوان معالم بلاغة الأنبياء لينظر في مظاهر تلك البلاغة من خلال آيات من الذكر الحكيم بالإشارة إلى مكمن بلاغتها تصريحاً أو ضمناً، مع الاستشهاد باجتهادات المفسرين وتعقيبات العلماء على النص القرآني من أجل التأييد والتوثيق.

المقدمة

البلاغة في حقيقتها فنٌّ السيطرة على النفوس بأسلوبٍ مشرقٍ يجمع بين الإقناع والإمتاع، ويخاطب العقل والوجدان، ويدخل القلوب من غير استئذان، ويبدو أن الإنسان كان على مدار التأريخ في حاجة إلى هذه المقدرة البيانية لنشر أفكاره بين الناس، والدعوة إلى المبادئ التي يؤمن بها، والدفاع عن حقوقه المغتصبة، والردّ على أعدائه، لأنّ هذه الوسيلة أليق بمكانة الإنسان في الكون، وأبعد عن طبيعة الوحوش، وأضمن لتحقيق الأمن والاستقرار، وأدوم لبقاء المبادئ في الذهن، ويتأكد الأمر إذا كان صاحب الدعوة على حقّ مبين يسير في طريقه على بصيرة ووعي، ويُصدر في رأيه عن حكمة ورشد.

ولقد أرسل الله عزّ وجلّ إلى كلّ قومٍ رسولاً من أنفسهم، يهدي كلَّ ضالّ، ويُرشِد كلَّ غاوٍ، ويعلّم كلَّ جاهلٍ، ويخسأ كلّ متمرّد، ويقوّم كلَّ معوّج، ويقمع كلَّ شرّير، وكلٌّ هذا لا يتأتّى إلا إذا كان الرسول لبيباً فطِناً ذكيّاً يتمتع بطلاقة اللسان، ويكون على درجة عالية من ثقافة البيان، ممّا يمكّنه من إيصال الرسالة على أحسن الوجوه وأتمّها، ومن ثمَّ بات من الحقائق الثابتة في عقيدة المسلم أن يكون الرسول من كلّ قوم أعلاهم بياناً، وأبلغهم كلاماً، وأقواهم حجّةً وتأثيراً، وأبعدهم عن العجر والعيّ والحصر، ومن شأن هذه الصفة في الشخصية أن تفرض على الناس الاحترام والتبجيل، وأن تُسرِع في الاستجابة والقبول، وتُحيط كلامَ الرسول بهالة من النور، يقول الرافعي: إذا كانت رعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور، فإنّ أشعة الوحي في كلام الرسل عليهم السلام هي قصة الهداية لإنسان الكون في نور من الكلام(١).

المحور الأول

تقدير سحر البيان في الفكر الإنساني

الاهتمام بتزيين الكلام وتحسين القول ليس أمراً مقصوراً على العرب وحدهم، بل هو من الأمور المشتركة بين الأمم، لكن العرب فاقت غيرها في هذا المجال، يُذكَر أن اليونان كانوا يُعنون بالخطابة عناية بالغة، وضعوا لها قواعدَ وأصولاً، رفعوا من شأن الخطيب البارع، ألقَوْا الخُطَب الرنّانة في المحافل السياسية والألعاب الأولومبية والمناسبات الرسمية والأعياد الدينية، مارسوها في السِّلم والحرب، و"قد اشتهرت مدينة أثينا اليونانية العريقة بخطبائها المصاقع، وبلغائها الفطاحل، وكان معظمهم من ذوي الجاه والسلطان والغنى والثراء، وتكلّلت جهود اليونانيين بكتاب الخطابة لأرسطو الذي ظلَّ ردحاً من الزمن شريعة للخطباء الإغريق، عنه يُصدرون، وإليه يردون، ومن معينه يستقون"(٢).

لقد قويت في أهل أثينا رغبةُ القول، واشتدَّتْ فيهم داعيتُه، إذ صار يأسرهم القولُ البليغ دون سواه، وامتازت هذه المدينة ببلاغة خطبائها، فكانت حقاً بلدَ الأدبِ وحسنَ الإلقاءِ، بالخُطَب يُقضَى كلُّ أمرٍ عظيم، وللخطباء سلطةٌ ونفوذٌ، وكثيراً ما يلجؤون إلى بلاغة قولهم للنيل من عِدَاتِهم في سياستهم، وإذا كان التسابق البياني

وصل إلى هذا الحدّ فلا عجب إذا رأينا أن من لم يكن قديراً على فنون القول حاول أن يتعلّمها، ولذا اتّجه الناس إلى تعلُّم الخطابة والدربة عليها، والتمرين على الإلقاء، وتعويد اللسانِ النطقَ الصحيحَ، والبيانَ الفصيحَ[٣]، ونبغ في أثينا خطباء مفوّهون وجهابذة في تنميق الأسلوب بارعون، أمثال كليون، وديموستين، وشيشرون، وكان شيشرون معروفاً بطلاقة لسانه، وحسن إلقائه، وتهذيب خطبه إلى أعلى مستوياتها البلاغية، يقول محمد كرد علي: "إنّ جميع خطباء أثينا ينمّقون العبارات قبل أن يتلوها... وطالما هذّب شيشرون خُطَبَه، وتمرَّنَ على إلقائها، حتى إنّه في سنّ الستين قبل أن يُقتَل كان يُمرِّنُ نفسَه على الإلقاءِ، وكان القدماءُ يُعَلِّقون شأناً عظيماً على الإلقاء في المجالس العامة، حتى لقد أفرط شيشرون في قوله: إنّ الخطاب العام يتطلب تعبيرات لطيفة منتقاة"[٤]، ويشيد (كونتيليان) ببلاغة (ديموستين) في خطبه قائلاً: "إنّ طلاّبَ البلاغةِ يجب عليهم ألاّ يدرسُوا خطبه فحسب، بل أن يحفظوها عن ظَهْر قلبٍ"[٥].

وبلغت العناية عند اليونان والإغريق باختيار الأجود من الكلام، والأجمل من الأس لوب غايته على أيدي السفسطائيين الذين اشتهروا باتقان الجدل وإجادة المناظرات، إذ كانوا "يعلّمون الشباب في أثينا طرق التغلب على خصومهم في ميدان السبق الكلامي، وكيف يُغالطونهم؟ وكيف يُلبِّسون عليهم الحقائقَ؟ ويُمرِّنونهم على القول المبين، والإلقاءِ المحكم"[٦]، بل إن الفلسفة عند اليونان على اتصالها الشديد بالعقل والمنطق لم تكن مقطوعة الصلة بمهارة الحديث وفن القول، و"لقد اعتاد القدماء، حسب شيشرون، إلى زمن سقراط أن يجعلوا جميع بحوثم وعلومهم المتعلقة بالخلق وبواجبات الحياة والفضيلة والحكومة والمدنية مرتبطة بفن الكلام"[٧]، وكان "ايسقراط يرى أن الفصاحة عملية خلاّقة، وهي مصدر المدنية والقوانين والفنون ومعظم خيرات الإنسان، كما أنها العلامة الفارقة التي تميّز الناس عن الوحوش، مثلما هي أداة الحكمة ومختبرها"[٨].

وللفرس والهنود اهتمام كذلك بتحبير المنطق وبتجويد الكلام، بدليل ما ساقه الجاحظ من تعريفاتهم للبلاغة[٩]، ثم هو في معرض ردّه على مطاعن الشعوبية ضد العرب والمسلمين يذكر طرفاً من وَلَعِ الفرس بتدقيق المعاني وتنميق الألفاظ،

فيقول: " والخطابةُ شيءٌ في جميع الأُمم، وبكلّ الأجيال إليه أعظمُ الحاجةِ، حتى أن الزِّنْجَ مع الغَثَارة، ومع فَرْط الغَباوة، ومع كَلالِ الحدِّ وغِلَظ الحِسِّ وفسادِ المِزاجِ، لَتُطيلُ الخُطَبَ، وتفوقُ في ذلك جميعَ العجمِ، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظَ، وألفاظُها أخطلَ وأجهلَ، وقد علِمْنا أنَّ أخطبَ الناسِ الفرسُ وأخطبَ الفرسِ أهلُ فارسٍ، وأعذبَهم كلاماً وأسهلَهم مَخرجاً وأحسنَهم دلّاً، وأشدَّهم فيه تحكُّماً، أهلُ مَرْوٍ، وأفصحَهم بالفارسية الدَّرِيّةُ... قالوا: ومن أحبَّ أن يبلُغ في صِناعة البلاغة، ويعرف الغريب، ويتبحر في اللغة، فليقرأ كتاب كارْوَند، ومن احتاج إلى العقل والأدب، والعلم بالمراتب والعِبَر والمَثُلات، والألفاظ الكريمة، والمعاني الشريفة، فلينظر في سِيَر الملوك، فهذه الفرسُ ورسائلُها وخطبها وألفاظها ومعانيها، وهذه يونانُ ورسائلُها وخُطَبُها، وعِلَلُها وحِكَمُها، وهذه كتُبُها في المنطق التي قد جعلتها الحكماءُ بها تعرف السَّقمَ من الصِّحة، والخطأَ من الصوابِ، وهذه كُتُبِ الهِنْد في حِكَمها وأَسْرارها، وسِيرَها وعِلَلِها، فمن قرأ هذه الكتبَ، وعرَفَ نورَ تلك العقولِ، وغرائبَ تلك الحِكَم، عرَفَ أين البيانُ والبلاغةُ، وأين تكاملَتْ تلك الصناعةُ"(١٠).

صحيح أن الجاحظ حين يستشهد بأقوال هؤلاء إنما يريد الردّ عليهم، لكن الكلام الذي حكاه الجاحظ يدلّ من طرف آخر على صدى هذه الآراء في الأوساط الثقافية التي كان الجاحظ يعيشها وكان هو مشغولاً بالردّ عليها ليصل في النهاية إلى أن العرب أخطبُ الأمم وأشدُّهم عنايةً بترويض اللسان على جيّد الكلام.

والخطابة بوصفها مظهراً من مظاهر البلاغة عرفتها الأمم الماضية، وشهدت بدورها الحضارات القديمة، ولم يخلُ منها "سجلُّ أمةٍ وعى التاريخ ماضيها، فقد حفظها خطُّ آشور المسماري، وقيّدها خطُّ الفراعنة الهيروغلي، ورواها تأريخا اليونان الأدبي والسياسي منذ القرن السابع قبل الميلاد، وبها أخضع بُوذا الجموعَ الهندية لتعاليمه، وبها أذاع الدينَ أنبياءُ بني إسرائيل، وكان لها مكانُها العظيمُ في مجامع العرب، وفي أسواقهم الأدبية بنوع خاص"(١١).

وكانتِ العربُ قبل الاسلام تفتخر بأنَّها أُمَّةُ فصاحةٍ وأصحابُ بلاغةٍ، حتى إنهم وصفوا غيرهم بالعجم في إشارة إلى أنهم تقع دونهم في الفصاحة والبيان، وكانوا يقدرون هذه الموهبة في أبنائها حق قدرها، وينظرون إلى من تتوافر فيه هذه

القدرة من رجالها بعين الإكبار والإجلال، يقول ابن رشيق القيرواني: "كانتِ القبيلةُ من العرب إذا نَبَغ فيها شاعرٌ أتتِ القبائلُ فهنَّأَتْها، وصَنَعَتِ الأطعمةَ، واجتمَعَ النِّساءُ يَلْعَبْنَ بالمَزاهِرِ، كما يَصْنَعْنَ في الأعراسِ، وتَباشَرَ الرجالُ والوِلدانُ؛ لأنَّه حمايةٌ لأَعراضهم، وذبٌّ عن أَحَسابهم، وتخليدٌ لِمآثرهم، وإشادةٌ بذكرهم، وكانوا لا يُهَنِّئون إلا بغلامٍ يُولَد، أو فرسٍ تُنتَج، أو شاعرٍ ينبُغُ فيهم"(١٢).

هكذا نجد أن القبائل العربية في القديم كانت تصنعُ الموائدَ، وتُقيمُ الاحتفالاتِ، وتُظهِر الأفراحَ والمسرّاتِ، ويُهنئ بعضُهم بعضاً، إذا نبغ فيها شاعرٌ مُفلِق أو خطيبٌ مِصْقَعٌ، فشاعرُها يتغنَّى بأمجادها ويُشيد بمآثرها، ويُخلّدُ مناقبها، ويدافع عن أعراضها وحِماها، ويردّ عنها أذى الأعداء، بما أوتي من نظم بديع وقول بليغ، وخطيبُها يرفَعُ من قدرها، وينوب عنها في المهرجانات الثقافية وفي المجالس العامّة وفي المحافل الكبرى التي تجمعُ أصحابَ النفوذِ ومن بيده القرارُ النهائي من أولي النُهى وذوي العقول الراجحة من كل القبائل إذا عَزَمْنَ على حَقْن الدّماء، أو على إصلاح ذات البين، أو على عقد القِران، أو على التحكيم في الخصومات، أو غير ذلك من الشؤون العامة.

ومن أخصّ صفات الخطيب في العصر الجاهلي فوق رجاحةِ العقل، وسَداد الرأي، وبُعْدِ النظر، وحُسْن السَّمْت، ومَهابة المنظر، وشرف النسب، بلاغةُ الكلامِ، وفصاحةُ اللسان، وجمالُ التعبير، وسحرُ البيان، وحسنُ الإلقاء، وشدةُ الأَسْر، وبراعةُ العَرْض، و"كان الخطيبُ الجاهليُ يخطُبُ قوماً اشتهروا بالفصاحة واللَّسَنِ وسلامة الفطرة، فلا يؤثِّر فيهم ولا ينال من قلوبهم إلا إذا كان يعلوهم فصاحةً، ويسبقهم لَسَناً وبياناً، فلا يكون فيه بالأولى عيبٌ من العيوب التي لا تتفق مع فصاحة اللسان وجودة النطق، فلا يكون فيه عِيٌّ ولا حَصرٌ، ولا فأفأةٌ ولا شيء من عيوب النطق، وكذلك كان الخطيب في الجاهلية فصيحَ العبارة، طَلْقَ اللسان، واضحَ اللهجةِ، جيّدَ الإلقاءِ"(١٣).

ومن دلائل عناية الجاهليين بفصيح اللسان وبليغ الكلام، أنّهم كانوا يستعظمون من توفّرت فيه هذه الملكة التعبيرية، ويُفضِّلونه على غيره حتى لو فاق عليه غيرُه في الصفات الجسدية والاجتماعية والمادية، يقول الجاحظ: "كانتِ العربُ

تُعَظّمُ شأْنَ لقمانَ بن عادٍ الأكبر والأصغر لُقَيم بن لقمان في النَّباهة والقَدْرِ، وفي العلم والحُكْمِ، وفي اللسان والحِلْم"(١٤).

وذهبوا أبعدَ من ذلك حين كانوا يشترطون فيمن يسود قومَه أن يكون واضحَ البيان، شديدَ العارضة في الكلام، مسموعَ الكلمة، إذ كان سيّدُ القبيلة عادةً من أرجحهم عقلاً، وأسداهم رأياً، وأبينهم لساناً، وأفصحهم كلاماً، وأسمعهم قولاً، يدعو فيُجاب، ويأمر فيُطاع، ويُرشِد فيُستَرشد بأمره، يذكر بعضهم من أخبار الأحنف بن قيس، وهو سيّد قومه في الجاهلية وفي الإسلام، أنّه "قَدِم علينا الأحنفُ بن قيس الكوفةَ، مع المصعب بن الزبير، فما رأيتُ خصلةً تُذَمُّ في رجلٍ إلاّ وقد رأيتُها فيه... ولكنّه إذا تكلَّم جلَّى عن نفسِهِ"(١٥)، وينقل البغدادي عن الجاحظ في كتاب (شرائع المروءة) أنّه قال: "كان أهلُ الجاهلية لا يُسوِّدون إلا من تكامَلَتْ فيه سِتُّ خِصَالٍ: السَّخاءُ، والنَّجدةُ، والصَّبرُ، والحِلْم، والتواضُعُ، والبيانُ، وصار في الإسلام سبعاً"(١٦).

نخلص من ذلك كلّه أن العربيَّ كان لا يُقدِّس شيئاً فوق فصاحة اللسان، وعلى هذا انعقد الإجماع بين الأدباء والنقاد والمؤرخين، يقول اسحاق بن وهب الكاتب: "وقد أجمعتِ العلماء وذوو العقول من القدماء على تعظيم من أفصحَ عن حجَّته، وبيَّنَ عن حقِّه، واستنقاصِ من عجَزَ عن إيضاح حقّه، وقصر عن القيام بحجته، ووصف الله قريشاً بالبلاغة في الحجّة واللَّدَد في الخصومة، فقال: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾(١٧)، وقال أيضاً: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾(١٨)، وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾(١٩)، وقال: ﴿ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾(٢٠)، وذمَّ من لا يُقيم حجته، ولا يُبين عن حقه في خصومته، وشبَّهَهُم بالوِلدان والنِّسوان"(٢١)، في قوله: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾(٢٢).

ويرى الجاحظ أن قلة كلام النبيّ ﷺ لا تُعزَى إلى عجزه عن الاهتداء إلى جياد المعاني ولا إلى الجهل بمحاسن الألفاظ، وإنّما إلى الابتعاد عن الصنعة، وإلى تجنّب الفضول من القول، وإلى شدّة محاسبة النفس، وإلى إيثار هيبة الصمت، ثمَّ

يقول: "ولو كانت تلك القلّة مِنْ عَجْزٍ كان النبيُّ ﷺ أحقَّ بمسألةِ إطلاقِ تلك العقدة مِنْ موسى عليه السلام، لأنَّ العربَ أشدُّ فخراً بِبيانها، وطولِ ألسنتها، وتصريفِ كلامِها، وشدِّة اقتدارها، وعلى حسب ذلك كانت زِرايتُها على كلِّ من قصَّر عن ذلك التمام، ونَقَص من ذلك الكَمالِ"(٢٣)، فكيف يصحُّ أن يُعَلَّل قلةُ كلامِ النبيّ ﷺ بالعجز، وقد أُرسِل إلى قومٍ فخورٍ بطول لسانهم، عيَّابٍ لمن عجز عن تمام البيان، وهم يُصدِرون في بيانهم عن الارتجال والبديهة، وعن صفاء الفكر، وعن سلامة الفطرة، وعن طواعية اللغة، و"كانوا أميّين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلَّفون، وكان الكلامُ الجيّدُ عندهم أظهرَ وأكثر، وهم عليه أقدرُ وأمهرُ، وكلُّ واحدٍ في نفسه أنطقُ، ومكانُه من البيان أرفعُ، وخطباؤهم للكلام أَوجدُ، والكلامُ عليهم أسهلُ، وهو عليهم أَيسرُ من أنْ يفتقروا إلى تحفُّظ، ويحتاجوا إلى تدارُس، وليس هم كمن حفِظ علمَ غيرهِ، واحتَذَى على كلامِ مَنْ كان قبلَه، فلم يحفظوا إلا ما علِق بقلوبهم، والتحَمَ بصُدورهم، واتَّصلَ بعقولهم، مِن غير تكلُّف ولا قَصْد، ولا تحفُّظٍ ولا طَلَبٍ"(٢٤).

وفي تصنيف الناس وما يختصّ به كلّ قوم ينسُب أبو حيان التوحيدي جمالَ البيان وطلاقةَ اللسان إلى العرب على ألسنة بعض الفلاسفة، ثمَّ يعلِّل هذه الخصوصية اللسانية واللغوية عند العرب بأسباب من الطبيعة وطريقة العيش، فيقول: "سمعتُهُ ـ أي أبا سليمان ـ يقول: نزلتِ الحكمةُ على رؤوس الروم، وأَلْسُن العرب، وقلوبِ الفرس، وأيدي الصين... وقال: الحَرْفُ الذي يُدعَى في العربية، ويُنسَب إلى الأدب موروثٌ من العرب، وذلك أنَّ أَرضَها ذاتُ جَدْبٍ، والخِصْبُ فيها عارِضٌ، وهُمْ من أجلِ ذلك أصحابُ فَقْر وضُرٍّ، وربما دُفِعُوا إلى وِصالٍ وَطَي، وكلُّ مَنْ تشبَّه بهم في كلامهم وطريقتهم وعبارتهم ارتضخ ما هو غالب عليهم من الحَرْف والإخفاق اللذين عليهما إِلْفُهُم، ألا ترى أن الشَّبَعَ غريبٌ عندهم، والرُّغْبُ مذمومٌ منهم؟ وهذه هي الحال التي فرَّقت بين الحاضرة والبادية، وقد زادتْهُم جزيرتُهم شرّاً، لكنهم عُوِّضُوا الفطنةَ العجيبة، والبيانَ الرائع، والتصرفَ المفيد، والاقتدارَ الظاهر، لأن أجسامَهُم نُقِّيتْ من الفُضُول، ووصلوا بِحِدَّة الذهن إلى كل معنى معقول، وصار المنطق الذي بان به غيرَهم بالاستخراج مركوزاً في أنفسهم من غير

دلالةٍ عليه بأسماء موضوعةٍ وصفاتٍ متميزة، بل فشا فيهم كالإلقاء والوحي، لسرعة الذهن وجودة القريحة"(٢٥).

ولمّا أن جاء الاسلام أعلى من شأن كلّ الوسائل التي تعمل على تربية الذوق الأدبي، وعلى ترسيخ ملكة البلاغة، وتهذيب الكلام، وصَقْل اللسان، وإيصال كلمة الحقّ في تعبير جمالي يُسهّل عملية الاستجابة والقبول، ولعلّ من أبرز تلك الوسائل نزول القرآن الكريم، إذ مثَّل القرآن الكريم معجزة لغوية جمالية استولت على مشاعر العرب وأحاسيسهم وعقولهم ببديع نظمه، وحُسن سَبْكه، ودقة اختيار ألفاظه، وجمال إيقاعه، وطرافة عرضه، فوق جلالة المعنى، ومخاطبة العقل، وصواب الفكر.

أضِفْ إلى ذلك أن القرآن الكريم نفسه يدعو صريحاً في كثير من آياته إلى مراعاة هذا الجانب في الدعوة إلى الله، وفي التواصل مع الناس، وفي مجادلة غير المسلمين، وفي مخاطبة المنافقين، من ذلك قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ (٢٦)، وقوله: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢٧)، وقوله: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ (٢٨)، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ (٢٩).

وثالثُ هذه الوسائل التي أولتِ الكلامَ البليغَ عنايةً فائقة الحديثُ النبوي الشريفُ وكلامُ المصطفى ﷺ الذي أحيط بنور النبوّة، وتُوِّج بحكمة القرآن، إذ خاطب الرسول ﷺ قومه بأسلوب بياني مشرقٍ لم يألفوه، فنال إعجابَهم، وبذَّ على فصحائهم وبلغائهم، وجالَ في أسواقهم وأندِيَتهم، فَبَهرَهم بلسانه الصادق الفصيح، وبتدفق معانيه وأفكاره، فاعترفوا له بالسبق والتميّز، ولمّا سأله أبوبكر الصديق ذات يوم، وقال له: "يا رسول الله ﷺ طُفتُ في العرب، وسمعتُ كلامَ فصحائهم فما سمعتُ أفصحَ منك، فمَنْ أدَّبك؟ فقال ﷺ : أدَّبني ربي فأَحسَنَ تأديبي، ونشأتُ في بني سعد"(٣٠).

ومن شدة إعجابه بأثر القول البليغ وتأثيره في النفوس جعله قريناً للسحر، فقال: "إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً"(٣١)، قال الزرقاني في شرح الحديث: "يَعْنِي أَنَّ مِنْهُ لَنَوْعًا يَحُلُّ مِنَ الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ فِي التَّمْوِيهِ مَحَلَّ السِّحْرِ، فَإِنَّ السَّاحِرَ بِسِحْرِهِ يُزَيِّنُ

الْبَاطِلَ فِي عَيْنِ الْمَسْحُورِ، حَتَّى يَرَاهُ حَقًّا، فَكَذَا الْمُتَكَلِّمُ بِمَهَارَتِهِ فِي الْبَيَانِ، وَتَقَلُّبِهِ فِي الْبَلَاغَةِ، وَتَرْصِيفِ النَّظْمِ، يَسْلُبُ عَقْلَ السَّامِعِ، وَيَشْغَلُهُ عَنِ التَّفَكُّرِ فِيهِ وَالتَّدَبُّرِ حَتَّى يُخَيَّلَ إِلَيْهِ الْبَاطِلُ حَقًّا، وَالْحَقُّ بَاطِلًا، فَتُسْتَمَالُ بِهِ الْقُلُوبُ كَمَا تُسْتَمَالُ بِالسِّحْرِ، فَشُبِّهَ بِهِ... وَإِنَّمَا جَعَلَهُ سِحْرًا لِتَعَلُّقِهِ بِالنَّفْسِ، وَمَيْلِهَا إِلَيْهِ"(٣٢)، ويزيد مصطفى ناصف لغة الحديث شرحاً وبياناً فيقول: "لقد كان الإسلام حريصاً منذ اللحظات الأولى على أن يبيّن ما يكتنف بلاغةَ القول من خطرٍ، وحين يقول الرسول ﷺ: إنّ من البيان لسحراً، فإنما جمعَ بين عدة اعتبارات، بين محبَّةِ القولِ والرغبةِ في الاستماع إليه من ناحية، والتعوذِ من البيان الساحر إذا ما ملك عقلَ الإنسان ونفسَه، وإذا كان الناس في القديم يتداولون لفظ الساحر تداولاً بسيطاً، ويُعنَون به تأثير اللغة الجميلة في النفس، فإنَّه يجب أن نتذكَّر أن الذين عارضوا الإسلام وصفوا القرآن بالسحر، ومعنى ذلك أن لفظ السحر كان يُقصَد به إغراءُ الكلام أو القدرة غير العادية على أن يصرفك إليه دون أن يكون لذلك سببٌ واضحٌ، أو حجةٌ مقنعة، ومن هنا يُطلَق لفظ السحر على كلّ ما يخلبك إليه دون أن تعرف سبباً للخلابة حتّى يودّ المرء لو لم يقع في قبضته"(٣٣).

بَيْد أن الفن الذي ارتفع في الإسلام مرة أخرى بدوافع دينية واجتماعية وسياسية هو فنّ الخطابة، إذ بلغت الخطابة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وفي عصر الأمويين، إلى أعلى مستوياتها في البلاغة والفصاحة، يقول أحد الدارسين: "وكان للخطابة في الشرع الإسلامي أقوى حليفٍ، وأنفَعُ نصيرٍ، فقد فرَضَها الشرعُ على الأئمة في كلّ حفْلٍ كبيرٍ، كالجمعة، والعيدين، ومواسم الحجّ، ويوم السقيفة، وكلِّ أمر جامع، فأتقنها الأئمةُ والزعماءُ، وبرَع فيها الحُكَّامُ والعُمَّالُ، وشُغِف بها الخاصَّةُ والعامَّةُ، وتَمرَّنَ عليها الطامحون في الإمامة والزَّعَامة والقِيادة، فعمِلَتِ الخطابةُ في الأُمة ما لم يعمله الشِّعر في قيادة الجماهير، والوصولِ إلى زعامةِ الأحزابِ وتدبيرِ أمور الدولة، وكثيراً ما تبوَّأ الخطيبُ المناصبَ العاليةَ ببلاغته، وبلغ المراتبَ الرَّاقيةَ بفصاحته، وكان الحجَّاج معلّماً للصِّبيان، فأصبح والياً للعراقَيْن بفضل خطابته، وقوَّة حجته، والناسُ على دين ملوكهم، والجماهيرُ تُقلِّد الأمةَ في مُيولها، ولذلك أصبحتِ الخطابةُ في صدر الإسلام حِلْيَةَ الأديبِ، وهدفَ الفصيحِ،

ومثـالَ البليـغِ، يطلُبُهـا البُلغـاءُ حُبّـاً لهـا، وينبُـغُ الطـامحون فيهـا طمحـاً بالفصـاحة وإعجاباً بالبلاغة"(٣٤).

المحور الثاني

أهمية البلاغة في الدعوة إلى الله

يمتـاز الإنسـان بخاصـية النطـق باللسـان والتعبيـر عمّـا فـي الجِنـان، وهـذا يعنـي أن الإنسـان كـائنٌ لغـوي علـى درجـة عاليـة مـن الـذكاء، وحيـوانٌ بلاغـي مـن الطـراز الأول، يسـتمدّ حضـوره مـن التفكيـر ومـن الكـلام، وللكـلام عنـد الإنسـان دلالات علـى آفاقـه المعرفيـة وانفعالاتـه النفسـية وتفاعلاتـه الاجتماعيـة وذائقتـه الجماليـة، وأسـاس هـذه الحقيقـة قـائم علـى أنّ "الكلمـة وجـودٌ وضـرورة إنسـانية، تُعبِّـر عـن قيمتهـا وأهميتهـا بـذاتها مـن دون تبـاطؤ أو انحـراف، وهـي بهـذا المفهـوم الصـورة المثلـى لمقاصـد القـوم ومشـاعرهم مـن أجـل إثبـات الحـق، وبهـا تُحفَـظ مجموعـة القـيم التـي يتواضـع عليهـا النـاس، ومـن ثـمَّ تقيـد القـوانين التـي قـد توافـق النشـأة الأولـى والحـق أو تخالفـه، وتبقـى الكلمة وحدها هي الفاصلة والفيصل بين الخبيث والطيب"(٣٥).

ونظـراً إلـى تـوافر هـذه الخَصِيصـة فـي الإنسـان فقـط، وُكِّـلَ إليـه أمـر الـدعوات علـى طـول التـاريخ، ولا شـكّ فـي أن الغـرض مـن الـدعوات نشـرُها بـين النـاس لقبـول مبادئهـا وتطبيـق شـرائعها علـى أرض الواقـع، وأنّ أنجـعَ وسـيلةٍ لهـذا الغـرض هـو اللسـانُ الفصـيحُ والكلمـةُ البليغـة، لأن الوسـائل الأخـرى كـالقوة والطَّمَـع لا تُنشِـئ إلا نمـاذج مـن النـاس منـافقين، ظـاهرهم يُغـري وبـاطنهم يُـؤذي، إذا ارتفـع عـنهم الضـغط عـادوا إلـى مـا كـانوا عليـه، لكـنّ همَّ الـداعي إلـى الله أن يقتنـع النـاس بدعوتـه مـن قـرارة نفوسـهم، و"حينئـذٍ تبـدو أهميـة اللسـان مـن حيـث أنّـه السـلاح الأسـاس فـي هـذه الحـرب الإعلاميـة أو النفسـية، وإذا كانـت سـائر الأسـلحة العسـكرية والنفسـية يمكـن لشـيء منهـا أن يـؤدي بعـض الغـرض الـذي يؤديـه السـلاح الآخـر، فـإن اللسـان هـو السـلاح الوحيـد الـذي لا يسـتغني عنـه الـداعي، ولا يجـد شـيئاً قـطّ يحـلّ محلَّـه، أو يغنـي عنـه أيَّ غناء"(٣٦).

وإنمـا كـان اللسـان علـى هـذه الدرجـة مـن الأهميـة للـدعاة، لأن "اللسـانَ الصـادقَ البليـغ يفعـل فـي الأُمـم فعـلَ الجيـوش الجـرَّارة، والكتائـب الهـادرة، والجنـود المغـامرين،

واللسانُ الصادق البليغ يُخاطب الأرواح مباشرةً، ويُناجِي الخَلَدَ بلا حجابٍ، ويُشاجي البصائر بما أراد"[٣٧]، ثمّ إنّ "اللسان الذَّلِقَ يصنع الأعاجيب، ويُنتِج الأحداثَ، ويرسُم الوقائعَ"[٣٨]، فاللسان الفصيح وحده يجلو الحقَّ، ويقطع عُرَى الباطل، ويأخذ بالألباب، ويستولي على النفوس، وبواسطته يرسم المتكلم البليغ فضاءً واسعاً من الإيحاءات، ورصيداً زخماً من الدلالات في ذهن السامع.

وأهمية الكلمة الحسنة في الدعوة إلى الله تظهر إذا عرفنا أثرها في ذهن المرء وقدرتها على تغيير قناعته لارتباط الكلمة بالوعي والتفكير، ولقدرتها على إثارة الخيال والتأثير في الذاكرة وتنشيط الحواس لاستقبال آثارها، وسرُّ ذلك عائدٌ إلى التفاعل العجيب الذي يستأثر به الإنسان ـ إسالاً وتلقياً ـ في التعامل مع الكلمة في فضاءاتها المعرفية والعقلية والروحية، لأنّ "الكلمة مرتبطة بالإنسان والكون والفكر والفن، لتدلَّ على أنسنة الإنسان وتجلّي الروح الخالدة في الكون، وتحقق الوجود الحيّ بالفعل الروحي الثقافي والجمالي، فالكلمة صورة العالم الأكبر، وإنْ عبَّرت عن ذات الإنسان في مشاعره وأفكاره وما يجري حوله، وما يتلقى من معارف وآراء"[٣٩].

وإذا ما اتصلت الكلمة بالوحي الالهي زادت قوتها في الإبلاغ، وإذا ما عبّرت عن الجانب الروحي لدى الإنسان اشتاقت الآذان إلى سماعها، ومن هنا أولتِ الرسالات السماوية عناية خاصة بالكلمة وما يكون بسببها من الكلام والحديث والحوار في التلقي والتبليغ، إذ كان الأنبياء يتلقَّون الوحي الالهي تارة في الصحف، وتارة ثانيةً في المناجاة، وتارة ثالثة في الحوار، مثلما كانوا يبلِّغون رسالات الله باللسان والكلام والمناظرة والمحاورة، و"ما زال الإنسان يُقاد إلى الله بالكلمة، ما دامت له أُذُن تَسْمَعُ، وعينٌ ترى، وعقلٌ يُفكِّر، وما زال القول يُوجِّهُه ويأسره ويملك عليه أقطاره، وما زالت الكلمة تقود وتؤثر وتعمل عملها المذهل في النفوس، بل أصبحت اليوم هي القوة المسيطرة والفعّالة التي استُغلّت، فكانت أقوى من الجيوش وأمضى من الكتائب، وأصبح الغزو الثقافي والفكري اليوم أقدرَ من الأسلحة "[٤٠]، ومن ثمّ اتخذت العقائدُ والفلسفات الكلمةَ وما تنتجه أساساً معرفياً لنشر دعواتها وإعلانها في الناس، مع وجود فارق بين طبيعة الكلمة في الاثنين، إذ "إنَّ الفارق

الأساسي بين العقائد والفلسفات ان العقيدة كلمة حيّة تعمل في كيان إنسان، ويعمل على تحقيقها إنسان، أما الفلسفة فهي كلمة ميّتة، مجرَّدة من اللّحم والدَّم، تعيش في ذهن وتبقى باردةً ساكنةً هناك"(٤١).

والكلمة المعبِّرة المثيرة من عناصر الكلام البليغ، وجمالُها في وَقْعها السمعي وأثرها النفسي، وفي اتساقها وترتيبها مع أخواتها في الخطاب، ومع هذا لا تتحقق صفةُ البلاغة في الكلام إلا إذا كان قادراً على التأثير والإقناع، وما من شكٍّ في أنّ الإقناع من القلب أساس كلّ دعوة تريد أن تطبق شرائعها في الواقع في رضى واستسلام، وأن يبقى أثرها في نفوس أتباعها لمدة أطول، وإنّ "الإقناع لا يكون بغير السيطرة على النفس، والسيطرة على النفس لا تتمّ بغير البلاغة، هي وحدها التي تعتدّ بالعقل في إدراك الحقّ، وبالشعور في إدراك الخير، وبالذوق في إدراك الجمال، وهي وحدها التي تنفذ إلى القلب بسلطانٍ غير ملحوظ، وتؤثر في الذهن ببرهان غير ملفوظ، وتذهب في تصوير الواقع وتقرير الحقّ مذهب الوحي الالهي الخالد"(٤٢)، وإذا كان الإقناع يُنظَر إليه على أنه من وظائف الدعاة والمصلحين، وأنه لن يتمّ بغير البلاغة وقوة الكلام فإنّ هذا الإقناع ليس إلا ثمرة التفاعل بين التأثير في العقل والتأثير في القلب، الأمر الذي يحمل على تعديل الرأي المخالف نهائياً وتغيير قناعته كلياً، ذلك أنّ "بلاغة الكلام هي تأثير نفسٍ في نفسٍ، وفكرٍ في فكرٍ، والأثرُ الحاصل من ذلك التأثير هو التغلب على مقاومة في هوى المخاطَب أو في رأيه"(٤٣).

وثمةَ شِبْهُ إجماع بين الدارسين في حقل البلاغة الجديدة على أن الإقناع كان عنصراً جوهرياً في بناء المنظومة الثقافية القديمة في خطابها الاجتماعي والسياسي والإعلامي، ولم يفارق هذا العنصرُ تلك المنظومةَ إلا في عصور أصبح الأدبُ صناعةً لفظية لا تستهدف أية قيمة جماعية أو فردية، لكن هذه الفترة لم تدُمْ طويلاً، ولم تجِدْ هذه النزعةُ ـ تنظيراً وتطبيقاً ـ آذاناً صاغيةً تحدّ من النزعة القيمية للأدب ولرسالته في الحياة، وإنما ظلَّت هذه النزعة ترافق البيان العربي وتغذّيه في العصور الأدبية بنسب متفاوتة حتى إذا جاء العصر الحديث أعادتِ البلاغةُ الجديدة لعنصر الإقناع حيويتَه ودوره في تشكيل الخطاب وتأطير أبعاده في التأثير

وتحويل القول إلى الفعل، و"من هنا فكلُّ اهتمامٍ ببلاغة الخطاب الإقناعي لا يمكن اليوم إلا أن يعيد الاعتبارَ للوظيفة الاجتماعية التي تؤديها اللغة الإنسانية، فهي تلعب دوراً مهماً في تقوية الروابط بين الأفراد والجماعات، وهي تسمح بالطلب والحصول على ما نريد، واستعمالها يستدعي معارف لغوية وكفايات إنسانية عامة ليست لغوية فقط"(٤٤).

إنّ الدين قائمٌ على الإقناع، يدعو أتباعه إلى الإيمان برسالته على بصيرة ووعي، ويرفض التقليد والتعصب، ويحثّ على النظر في آفاق الكون الفسيح، ويجعل التفكير السليم أساس الإيمان العميق، وبهذا صار الإقناع أرقى ثقافة عرفها الإنسان في التاريخ بتأثير التعاليم الدينية لتغيير الواقع وتصحيح الأفكار، ولترسيخ المبادئ والتصورات، وبديلُ الإقناع في الإصلاح ومشروع التغيير هو العنفُ وثقافة الهيمنة وفرض الإرادة وما يعقبه من الدّمار والويلات، فتجديد العهد بالإقناع في إطار البيان "ينطوي على إعادة الاعتبار للممارسة الحوارية، ولقيم الاختلاف والتفاعل، والتي قد تكون بديلاً عن الانهيارات والكوارث وأشكال العنف المميّز للمشهد العالمي الراهن"(٤٥)، ومؤدَّى ذلك أن الدين يعتمد على الإقناع، ويرفض القمع والتطرف، وان وسيلة هذا الإقناع هو الكلام المؤثّر الفعَّال في إطار الحق والخير، ولذلك أكّد المعنيون بالخطاب الحجاجي وآلياته "أن قوة البلاغة تكمن من الجهة الأولى في ارتباطها بالإقناع"(٤٦).

ويستمدّ الإقناع شرعيته في إطار البلاغة والبيان في اللغة العربية من أن النص في الحضارة الإسلامية كانت قيمته في تحويل الكلام إلى العمل، وفي تغيير القول إلى إنجاز الأفعال، لأنّ "وظيفة النص في بنية المجتمع الإسلامي الثقافية كانت تتحو إلى توظيفه لأغراض جماعية أو فردية، ولذلك كانت مكانة الشعر عندهم في الغالب لصيقةً بقدرته الإجرائية ومدى ما يبلغه من تغيير وتبديل... ولم يخرج القرآن الكريم عن هذه النزعة، بل لعله عمِل على تقويتها، إذ هو مجموعة من التعاليم الروحية والعملية كُلِّف الرسول ﷺ بحمل الناس عليها، والدعوة إلى الأخذ بها، وكان لا بدَّ أن يتمَّ ذلك عن طريق الإبانة عن المقاصد وإفهام الناس أسس الدعوة، لذلك تكثُرُ الآياتُ المحرّضةُ على البيان والفقه والتعقّل، وحتى جانب الفنّ

فيه فلخدمة الاعتقاد، والفنُّ في القرآن إعجازٌ، والإعجازُ إقناعٌ وسدٌّ للذرائع والقول، فنرى كيف سُخِّر لغاية خطابية نفعية"(٤٧)، ومن ثمّ لم تقتصر البلاغة في التراث العربي الاسلامي على الصناعة اللفظية والزخرفة البيانية فحسب، وإنما دخلت في صلب نظرية معرفية تحتلُّ حيّزاً واسعاً من عملية الإفهام والتأثير، نقل الجاحظ عن سابقيه أنهم قالوا: "يكفي من حظّ البلاغة أن لا يُؤتَى السامع من سوء إفهام الناطق... ولا يُؤتَى الناطق من سوء فهم السامع"(٤٨).

إنّ الدعاة إلى الله أحوج الناس إلى تذوّق الأدب الرفيع، والمِران على الكلام البليغ، ليمارسوه في مجال الدعوة أسوةً ببلاغة القرآن الحكيم واقتداءً بفصاحة الرسول العظيم α حتى يكون تأثيرهم في الناس عميقاً وواسعاً ومضمونَ النتائج في الاستمالة وشدّ الأعناق، والبلاغة لهذه الغاية الشريفة جزء من الحكمة والموعظة الحسنة اللتين أمر الله بهما في قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٤٩)، و"إنّ أرفع البلاغة وأسمى الأدب البياني لا يتحققان إلا بمطابقة الكلام لمقتضى حال من يُوجّه له، وإنّ الموعظة الحسنة كثيراً ما يكون الأدب أحدَ العناصر التي أكسبها الحسنَ، أو أجلَّها وأعظَمها، فالكلام البليغ وفنون الأدب الرفيع من الحكمة المطلوبة بالنص القرآني لدى الدعوة إلى سبيل الله، يُطالَبُ كلُّ إنسانٍ بها على قدر مستطاعه، والموعظة الحسنة لا تتحقق في معظم أحوالها إلا مقترنةً بأدبٍ بياني حسَنٍ مؤثر يناسب حال من تُوجّه له الموعظة، فهذا النص القرآني يدلّ على وجوب استخدام الأدب وسيلةً من وسائل الدعوة إلى الله"(٥٠).

والحكمة في الدعوة إلى الله لا تقتصر على مراعاة المقام، ولا على مراعاة الفروق الفردية، ولا على اختيار الموضوع المناسب، وعلى الرفق بالمدعوّ في التعامل فحسب، وإنما تشمل حسن العرض، وتمام التبليغ، وجمال الأداء، وحلاوة الكلام، وطلاوة العبارة، وقوة البرهان أيضاً، و"ممّا ينافي الحكمة خلوّ البيان ممّا يجذب النفوس إلى استماعه والإصغاء إليه، كالكلام الجافّ الذي ليس فيه تطريات أدبية، ولا زينات جمالية، ولا محرِّكات فكرية أو عاطفية"(٥١)، وتقييد الموعظة والجدال بالحسن يُرسِل إشارة واضحة إلى الدعاة باستخدام الجمال البياني في الدعوة والتبليغ مقروناً بجمال المضمون القائم على جلال الحق، وإرشاد الخلق.

وبتوجيه من القرآن الكريم، وفي ضوء استقراء الواقع الدعوي والتجارب العملية في حقل الدعوة أكّد قادةُ الإصلاح الديني وكبارُ الدعاة إلى الله في العصر الحديث ضرورةَ تحلّي الداعية ببلاغة الكلام، وفصاحة اللسان، وبراعة الأداء، فذكروا أنّ "من أبرز صفات الداعية طلاقة اللسان، وسلاسة البيان، وبلاغة الكلام، وهذا لا يتأتّى إلا إذا كان الداعية ذا ثقافة واسعة شاملة، وأن يعالج عيوب الصوت بالممارسة والمِران، وأن يتجنَّب الحروف التي تسبّب له اللثغة والفأفأة، وان يُكثِر من المطالعات الأدبية، والقراءات النثرية لكبار الأدباء ومشاهير الكُتّاب، لتتربّى في الداعية ملكة التعبير، وتنمو فيه طلاقة اللسان، وتتأصّل في ارتجاله ومواقفه فصاحة البيان، فلن تمرّ عليه فترة حتى يشار إليه بالبنان، لقوة تأثيره، وذلاقة لسانه، وفصاحة بيانه، وبلاغة حديثه"(٥٢).

ويُعلِي الدكتور يوسف القرضاوي من شأن الثقافة الأدبية واللغوية في حياة الدعاة حين يقرنها بالثقافة الدينية في قوله: "وإذا كانت الثقافةُ الدينيةُ لازمةً للداعية في الدرجة الأولى، فإنّ الثقافة اللغوية والأدبية لازمةٌ له كذلك، ولكن الأولى تلزمه لزومَ المقاصد والغايات، والثانية تلزمه لزوم الوسائل والأدوات، واللغة ــ بمفرداتها ونحوها وصرفها ــ لازمة لسلاسة اللسان، وصحة الأداء، فضلاً عن حسن أثرها في السامع، بل صحة الفهم أيضاً، فالأخطاء اللغوية إنْ لم تُحِّرف المعنى وتُشوِّه المرادَ يمجُّها الطبعُ، وينفِرُ منها السمع... والأدبُ ــ بشعره ونثره، وأمثاله وحكمه، ووصاياه وخطبه ــ مهمٌّ للداعية، يُثقِّفُ به لسانَه، ويُجوِّدُ أسلوبَه، ويرهف حسّه، ويقفه على أبواب العبارات الرائعة، والأساليب الفائقة، والصور المعبّرة، والأمثال السائرة، والحِكَم البالغة، ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التي يستخدمها الداعية في محلها، فتقع في القلوب أحسن موقع وأبلغه"(٥٣).

ويستغرب أحد أبرز قادة الدعوة الاسلامية المعاصرة ممّن يتصدّى لهذه المهمة الجليلة من غير أن يتسلّح بالبيان العالي، وبسياسة البلاغة، وبطريقة القدامى في صناعة الكلام وإنشائه، إذ يقول: "وإنّي لأعجب من دعاة الاسلام الذين أراهم اليوم، كيف يجرؤ أحدهم على إطالة العنق في المجالس، والنشر في الصحف، قبل أن

يجمع شيئاً من البيان جمعه الطبري في تأويل آي القرآن، وقبل أن يرفع له رايةً مع ابن حجر في فتحه، ولم يَنَلْ بعد من رفق أمّ الشافعي وحنانها، ولا كان له انبساط مع السرخسي في مبسوطه، أو موافقة مع الشاطبي في موافقاته ؟ وكيف يقنع الداعية وهو لم يقرأ بعد المهمَّ من كتب ابن تيمية وابن القيم والغزالي وابن حزم ؟ وكيف يسرع داعية إلى ذلك وهو لم يُكثِر من مطالعة كتب الأدب العربي القديم، ولم يعكف مع الجاحظ وأبي حيّان، أو ابن قتيبة وأديبي أصفهان ؟"[٥٤]، كلُّ ذلك وغيره من تقريرات أهل العلم يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن "على حامل الرسالة أن يُقدِّم مضامين دعوته إلى الله، ونصحه وإرشاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، بأساليب بيانية أدبية جميلة مشرقة، مزيّنة بما يُمتع الفكرَ والنفسَ من جمال في أدب الكلام، وبذلك يجمع بين المضمون الحق والحُلَلِ البيانية الجميلة"[٥٥].

ولم يقف هذا الأمر عند النداء العاطفي والحماس الديني، وفي حدود التنظير النصي والتأصيل الشرعي، وإنما تجاوز إلى الممارسة العملية والتبنّي في واقع الدعوة وفي حياة الدعاة، إذ عمل الدعاة المعاصرون على تنميةِ هذه الملكة في نفوسهم، وحِفْظِ ما استُجيِد من الأدب حتى يعينهم على تحسين لغتهم فترتقي إلى مستوى سموّ الغاية وشرفها، يقول الشيخ محمد الغزالي، وهو يؤيّد واقعاً دعوياً يربط بين البلاغة الأدبية والدعوة الإسلامية في إهاب واحد: "وفي ميدان الأدب الديني وُجِد فقهاء ودعاة ومفكرون ومفسرون لهم تدفقٌ وبلاغةٌ وذكاءٌ، مثل: محمد رشيد رضا، ومحمد فريد وجدي، وجمال الدين القاسمي، ومحمود شلتوت، ومحمد البهي، والفقيه الأكبر محمد أبو زهرة، والفقيه المؤرخ محمد الخضري، ومجدّد الإسلام في القرن العشرين حسن البنّا، كانتِ اللغةُ العربيةُ على ألسنة هؤلاء إذا خطبوا، وعلى أسِنَّة أقلامهم إذا كتبوا، تتفجَّرُ ينابيعَ صافيةً، ولو قُدِّرَ لهذه الفئة أن يطول بقاؤها لارتفعت بمستوى الجماهير، وأعادتهم إلى حظيرة اللغة التي هبطوا دونها"[٥٦].

وكان النشاط الدعوي لهؤلاء الصفوة وتأثيرهم الواسع خير دليل على فاعلية الكلام البليغ في تحريك النفوس في مجال الدعوة والتبليغ، إذ لوحظ في الصحوة الإسلامية في القرن العشرين من زيادة تأثيره في أوساط الشباب وسَرَيانه إلى طبقة المثقّفين والمفكّرين في قوة واتساع حين أخذ أصحاب الأقلام الرفيعة والأدباء الكبار

يكتبون عن الإسلام وأصوله، ويردّون على شبهات الأعداء وأباطيل المفترين، يقول محمد رابع الحسني الندوي: لمّا دخلت الصحوة الإسلامية مرحلة السعة والنضج دخل الأسلوب الأدبي إلى مجال الفكرة ومنهج الواقعية في كتابات الأدباء الإسلاميين، إذ استخدموا الأساليب الأدبية الرزينة الجادّة، المتصفة بالسلاسة والوضوح الأدبي، وكان منهم من يسلك منهج الاعتذار والدفاع في الكتابة، من أمثال العلّامة الشبلي وبعض معاصريه في الهند، ثمّ تطور المنهج والأسلوب، فكان تأثيره أعظمَ وأشدَّ، إذ تحوّل المنهج من الدفاع إلى الهجوم، وازداد الأسلوبُ جمالاً وبلاغةً، وممّن يمثّل هذا الاتجاه أبو أعلى المودودي وسيد قطب، ولمّا اكتسب أسلوب الدعوة في كتابات الأدباء الإسلاميين طابعَ الرشاقة والرقة والامتاع الأدبي زاد إقبال الجمهور على قراءة طروحاتهم حتّى عدّوا أحياناً تلك النتاجات الفكرية والدينية قِطَعاً أدبية ولوحاتٍ فنيةً، ونجد مثل هذا الاتجاه في كتابات أبي الحسن الندوي وعلي الطنطاوي وعدد غير قليل من معاصريهما من الذين جمعوا بين إمتاع الذوق بالأدب والبلاغة، وإقناع العقل بالفكر والبرهان(٥٧).

وإذا كان هذا الإحساس نامياً في أذهان هؤلاء القادة ومثمراً في تجاربهم الدعوية، فإنّ على الدعاة اليومَ أن يسيروا على هديهم، فيسدّدوا ويقاربوا، ليكونوا على أعلى مراتب البيان، وعلى أرفع درجات الفصاحة، يدخلون القلوب بآلة البلاغة، ويفتحون النفوسَ بسحر البيان، ويقطعون الطريق على منافسيهم بقوة البرهان، ولعلّ "هذا الامتياز للأديب المعرفي هو الذي يُبدِي عيبَ العاري من النطق، ونقص المحروم من بركات اللغة، وجولات الحروف، حين تتحرك وتصول، ثمّ تضغط بتركيز وإلحاح على جبهة في أرض المنافس، فتفتحها وتنتصر، وما كانت ثمَّ في المعركة قعقعةُ السلاح، وإنما هو البيان حين يضرب في ثنايا الحياة"(٥٨)، ومن أخطاء دعاة الإسلام اليوم أنهم "لا يعلمون أن البلاغة تفتح لهم الفتوح وهم جلوس"(٥٩)، ثمّ إنّ المركز القيادي في العمل الدعوي يفرض على الداعية تميّزاً في الإلقاء، وبراعة في الأداء، وجمالاً في الأسلوب، وتدفقاً في الكلام، إذ "إنّ التفوق اللغوي والبلاغي تحتاجه الصفوة بحكم موقعها القيادي، كما ان ذلك

التفوق قادر في كثير من الأحيان على جَعْل أشخاص شِبْه عاديين يُنظَر إليهم على أنهم من الصفوة التي يحسب حسابها"[٦٠].

المحور الثالث

معالم بلاغة الأنبياء

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [٦١]، هذه الآية الكريمة صريحة الدلالة على أمرين: أحدهما أن مهمة الرسل والأنبياء هي التبيين والبلاغ فحسب، والآخر أن وسيلة هذه المهمة الصعبة هي اللسان، به يُترجَم ما في الجنان، وبه يتمُّ التواصل مع الأنام، وبه نشرُ الخيرِ والاحسان، ولا يؤتي البلاغُ ثمارَه، ولا يتمكن البيان في النفوس، إلا إذا كان الرسول الذي يبلّغ عن ربه على أعلى درجات من فصاحة اللسان وبلاغة القول، لأن وظيفته تتطلب استمالة القلوب، ومخاطبة العقول، وتوضيح التشريعات، وإلزام المعاندين بالحجة والدليل، والردّ على الشاكّين بما يزيل في نفوسهم دواعي التكذيب والقلق، وكلّ ذلك يحتاج إلى لسانٍ فصيحٍ ينطق بالحكمة، وبيانٍ نافذٍ يؤثّر في النفس والوجدان، وقدرةٍ على المحاججة تبكت الخصم.

من الحقائق الثابتة في حياة الرسل عليهم السلام وتاريخ دعواتهم أنهم "كانوا أكرم أقوامهم نَسَباً، وأحسَنَهُم خُلُقاً، وأكثَرَهُمْ فطَانَةً وعقلاً، مع ما يتحَلَّوْنَ به من فصاحةٍ وحُسْن منطِقٍ، وقُدراتِ مُحاجَّةٍ وبيان، ومعَ ما هم فيه من جاذبية شخصية مؤثرة"[٦٢]، ونظرة فاحصة في حياة الأنبياء والرسل فيما سطره القرآن الكريم تؤكّد هذه الحقيقة.

فنبي الله نوح عليه السلام كان صاحبَ بيان رفيع، وقدرة فائقة على الجدال حتى ضاق قومه بقوة عارضته، وبطول نفسه في الجدال، إذ حكى عنهم القرآن الكريم أنهم ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ ﴾ [٦٣]، هذا اعترافٌ صريحٌ بأنَّ نوحاً قد أُوتي من القدرة على الجدال، وسداد المنطق، ورجاحة العقل، وحسن الإلقاء، وصواب الرأي، والصبر على الرأي المخالف، والبصر بمواضع الحجة ما لا يطيقون استماعه، ولا يستطيعون السكوت عليه.

ومن طبيعة المستكبرين أنَّهم يلجؤون إلى الحرب الإعلامية في توجيه الاتهامات الباطلة إلى الدعاة لتضليل الرأي العام، ويعمدون إلى الحرب النفسية في تلفيق الإشاعات لتضييق

الخناق على الدعاة وعلى أتباعهم إذا عجزوا عن الردّ بالمنطق الحكيم، وفشلوا عن قرع الحجة بالحجة، وتراجعوا في ميدان الحوار بالكلام الجميل المؤثر، يقول الحق: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾[٦٤]، حبُّ الرئاسة، ومخالفة أعراف الآباء والأجداد، أو ما يسمَّى في لغة العصر بالشذوذ والخروج على العُرْف العام، وإصابةٌ بالجنون والخَبَل، سلسلةُ اتهاماتٍ يرمي الملأُ بها الدعاةَ في كلّ زمانٍ ومكانٍ إذا غُلِبُوا في المناظرة، وبُهِتُوا في ميدان الحوار، وأُخِذوا بالحجة القاهرة.

وقد يلجؤون إلى أسلوب التحدّي السافر، وإلى التهديد بقوة السلاح إذا أحسّوا بخطورة كلام الدعاة عليهم وعلى أسرهم وعلى محيطهم الاجتماعي، وما ذلك إلا لقوة حجتهم، ونصاعة بيانهم، وقرب مأخذهم، فلنستمع إلى القرآن الكريم كيف يحكي لنا تهديد قومه إياه بأبشع صور القتل بعدما أطال نوح عليه السلام في محاورتهم واستخدم معهم كلَّ الأساليب الحكيمة: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾[٦٥]، ورأينا قبل قليل كيف كان القرآن يصوّر بأسلوبه البليغ تعنتهم وتحدّيهم حين: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[٦٦]، وهكذا "الجاهلون المعاندون عندما يعجزون عن الردّ المقنع يُشهِرون السيفَ في وجه من يحاورهم ويجادلهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنَّ نوحاً لم يُخرِجه هذا التحدّي عن سَمْتِه الكريم، وإنّما ردَّ عليهم بكلّ أدب"[٦٧]، حيث قال لهم ـ كما حكى عنه القرآن ـ : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[٦٨].

واستخلص الدارسون من جملة محاورات نوح مع قومه في القرآن الكريم أنه "كان رجلاً فتيقَ اللسان، واضحَ البيان، رزينَ الحصاة، بعيدَ الأَناةِ، رزقه اللهُ صبراً على الجدال، وقدرةً على تصريف الحجج، وبصراً بمسالك الإقناع"[٦٩].

وكان نبي الله هود عليه السلام ينطق بالحكمة البالغة، ويتصف بقوة الأداء والثقة بالنفس في خطاباته، فلا تستفزّه اتهامات قومه، فتُخرجه عن الهدوء في الجواب وتفقده اتزانه في أدب الحوار، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ

فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٧٠).

من دلائل فصاحته عليه السلام حكمته في البدء بالدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، والحثّ على التقوى بأسلوب استفهام يبعث على التفكير، ولا يخاطبهم بلغة الاستعلاء والتطاول، وإنما ينسب نفسه إلى عشيرته مبيناً لهم بأسلوب المشفق خوفَه عليهم من عذاب كعذاب الأمم السابقة، ومن مظاهر قوة شخصيته في البيان أنه جابَهَ اتهامات قومه إياه بالسفاهةِ والكذبِ جابَهَها بهدوء في الأعصاب، وأدبٍ في الخطاب، وتهذيبٍ في الجواب، إذ لم ينتصر لنفسه ولم ينتقم لها ولم يسمح لنفسه أن ينزل إلى مستواهم في الجهر بالسوء من القول، قال ابن كثير (٧٧٤هـ): "والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المُبلِّغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم أداءه بعبارة فصيحة وجيزة جامعةٍ مانعة، لا لَبْسَ فيها ولا اختلافَ ولا اضطرابَ، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم"(٧١).

وهذا هو أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام يستعمل في الدعوة أسلوب الاستدراج، فلا يناقضُ كلامَ الخصم أولَّ وهلة، وإنما يُرخي له العنانَ ليعثر حيث يُريد إفحامَه، وهذا أسلوب ينمُّ عن رقي عقلي في الاستدلال، ويدلُّ على قدرة عالية في إدارة فن المناظرة بعيداً عن الانفعال الذي يُحدث التشويش في الأذهان، ولا يحقق غرضه في الإذعان والتسليم، ويفوّتُ الفرصةَ على صاحب الحق، من ذلك محاورته الهادئة مع أبيه وقومه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا

تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾(٧٢).

ومنه ملاطفته وحسن أدبه مع أبيه فيما حكى عنه القرآن الكريم: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ (٧٣).

من بلاغة هذا الحوار في النص القرآني أنّه لا يستقلّ بالاحتجاج العقلي، ولا بالاستدلال المنطقي فحسب، لإقناع المدعوّ بالامتناع عن اتباع الشيطان والسّير على هَدْي الرحمن، وإنما يحفل النص بفيضٍ من إشراق الروح، وسموّ العاطفة، والمودّة في القربى، والأدب الرفيع، والإشفاق من سوء العاقبة، والهدوء في الطرح، والالتزام بأدب الحوار في المناظرة.

يقول ابن الأثير (٦٣٧هـ) مبيناً جمالية الأداء اللغوي في خطاب إبراهيم مع أبيه: "هذا كلامٌ يهُزُّ أعطافَ السَّامِعينَ، وفيهِ مِنَ الفوائدِ ما أذكُرُه، وهو أنَّه لمّا أرادَ إبراهيم عليه السَّلامُ أَنْ ينصَحَ أباهُ ويعِظَه ويُنْقِذَه ممَّا كان متورِّطًا فيه مِنَ الخَطَأ العظيمِ الذي عَصَىَ به أَمْرَ العَقْلِ، رتَّب الكلامَ معه في أحسنِ نظامٍ، مع استعمال المُجَامَلةِ واللُّطفِ، والأَدبِ الحَميدِ والخُلقِ الحَسَنِ، مُسْتَنْصِحاً في ذلك بِنَصيحةِ ربِّه، وذاك أَنَّه طلَبَ منه أولًا العلَّة في خطيئَتِه طَلَبَ مُنَبِّهٍ على تَمادِيه، مُوقِظٍ مِنْ غَفْلَتِه؛ لأنَّ المعبودَ لو كان حيّاً مُمَيِّزاً سَميعًا بَصيرًا مُقتدرًا على الثَّواب والعِقاب إلاّ أَنّه بعضُ الخَلْقِ يَسْتَخِفُّ عقلَ مَنْ أَهلَّه لِلعبادة، ووصفَه بالربوبية، ولو كانَ أشرفَ الخلائقِ كالملائكةِ والنَّبيين، فكيفَ بِمَن جعلَ المعبودَ جَماداً لا يَسْمعُ ولا يُبصِر، يَعني به الصَّنَمَ، ثُمَّ ثَنَّى ذلك بدعوتِهِ إلى الحقِّ، مُتَرَفِّقاً

بـهِ، فَلَـمْ يَسِـمْ أبـاه بالجهـل المُطلَـقِ، ولا نفسَـهُ بِـالعلم الفـائِقِ، ولكنَّـه قـال: إنَّ معـيَ لَطائفـةً مِـن العِلـمِ وشـيئاً منـه، وذلـك علـمُ الدّلالـة علـى سـلوكِ الطريـقِ، فـلا تسـتَنْكِفْ، وَهَـبْ أنّـي وإيَّـاك فـي مسـيرٍ وعنـدي معرفـةٌ بِهدايـةِ الطريـقِ دونَـك، فَـاتَّبِعْني أَنْجِـك مِـنْ أَنْ تَضِـلَّ، ثـمَّ ثلَّـث ذلـك بتثبِيطِـهِ عمَّـا كـان عليـه ونهِيْـه، فقـال: إنَّ الشـيطانَ الـذي استَعْصَـى علـى ربِّـك، وهـو عـدوُّك وعـدوُّ أبيـك آدم، هـو الـذي وَرَّطَـك فـي هـذه الورطـة، وألقـاكَ فـي هـذه الضَّـلالة، وإنَّمـا أَلْغَـى إبـراهيم عليـه السـلام ذكـرَ مُعـاداةِ الشـيطان آدمَ وذُرّيتَـه فـي نصـيحةِ أبيـهِ، لأنَّـه لإمعانِـهِ فـي الإخـلاصِ لـم يـذكرْ مِـنْ جِنـايَتَيْ الشـيطانِ إلاّ التـي تخْـتّصُ بـالله، وهـي عِصـيانُه واسـتِكْبارُهُ، ولـم يلتفِـتْ إلـى ذكـرِ مُعاداتِـهِ آدمَ وذرِّيَتَـه، ثـم ربَّـعَ ذلـك بِتَخويفِـه إيَّـاهُ سـوءَ العَاقبـةِ، فلـم يُصـرِّحْ بـأنَّ العِقـابَ لاحِـقٌ بـه، ولكنَّـه قـال: إنِّـي أَخَـافُ أَنْ يَمَسَّـكَ عَـذَابٌ، فَنَكَّـرَ العـذابَ ملاطفـةً لأَبيـه، وصـدَّر كـلَّ نصـيحةٍ مِـنْ هـذه النصـائح بقولـه: يَـا أَبَـتِ، توسُّـلاً إليـه، واسـتِعظاماً، وهـذا بخـلاف مـا أجابـه بـه أبـوه، فإنـه قـال: قَـالَ أَرَاغِـبٌ أَنْـتَ عَـنْ آلِهَتِـي يَـا إِبْـرَاهِيمُ، فأَقبـلَ عليـه بِفَظَاظَـةِ الكُفْـر، وغِلَـظِ العِنـادِ، فنـاداهُ باسْـمِه، ولـم يُقابِـلْ قولَـه: يَـا أَبَـتِ، بقولـه: يـا بُنَـيَّ، وقـدَّمَ الخبـرَ علـى المبتـدأ فـي قولـه: أَرَاغِـبٌ أنـتَ؛ لأنّـه كـان أهـمَّ عنـدهُ، وفيـه ضَـرْبٌ مـن التَّعجُّـب والإنكـارِ لِرغبـةِ إبراهيمَ عن آلهَتِهِ"(٧٤).

وإنما نقلتُ تعليقَ ابن الأثير على طوله لأنبِّهَ على مواطن الجمال في لغة ابراهيم عليه السلام، وأشيرَ إلى قدرته البيانية وطول نفَسه في الحجاج على لسان أديبٍ يُحْسِنُ التذوق البلاغي ويؤسّس لصناعة أصول البيان العربي في ضوء المعطيات النقدية القديمة.

ولعلّ أبرز ما في محاورات إبراهيم عليه السلام مع قومه وأبيه الاحتجاجُ العقلي والاحتكامُ إلى المنطق، ولأمر ما اختتمت المحاورة الأولى بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وفيه إشارة إلى قوة حجته وخصوصيتها وغلبته على قومه بمنطقه الحكيم، فلم يَدَعْ فرصةً تفوتُه في ملاحقة الخصم لإسكاته حتى يصل إلى اليقين في أمر التوحيد، ولعلّ الجاحظ ينظر إلى مثل هذا حين يقول: "جِماعُ البلاغة البَصَرُ بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة"(٧٥)، ويخلص المتأمل في محاورات إبراهيم مع أبيه وقومه إلى أن "إبراهيم قد

استعمل في محاوراته الرقةَ في الخطاب، والأساليبَ المقنعة للعقول والعواطف، والحججَ الباهرة التي تُفحم الخصمَ... لقد خاطَبَ إبراهيمُ قومَه بأبلغِ أسلوبٍ، وبأخلص نصيحةٍ، وبأقوى حجَّة، وبأسطع برهان على صدقه"(٧٦)، وكلُّ ذلك من مظاهر بلاغته في الحوار، ومن معالم فصاحته في الإقناع.

ولم يكن ابنه إسماعيل عليه السلام ببعيد عن أصالة أبيه في اللغة والبيان، يقول ابن كثير (٧٧٤هـ): "كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أوَّلَ من تكلَّم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذَ كلامَ العربِ من جُرْهُمَ الذين نزلوا عند أمّه هاجرَ بالحَرَمِ، ولكنْ أنطقه اللهُ بها في غاية الفصاحةِ والبيان"(٧٧)، ونبيّنا محمد ﷺ تمتُّ فصاحته بصلة إلى فصاحة إسماعيل عليه السلام فوق صلة النسب، يُروى أن عمر رضي الله عنه لمّا سأله: يا نبيّ الله ما لَكَ أَفْصَحُنا ولم تخْرُجْ من بين أَظْهُرِنا؟ قال ﷺ : "كانتْ لغةُ إسماعيل قد دُرِسَتْ، فجاءني بها جِبْريلُ، فحفِظتُها"(٧٨).

ونقل الجاحظ عن سابقيه أن الله أنطق إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بالعربية المُبِينةِ على غير التلقين والتمرين، وعلى غير التدريب والتدريج، ثمّ تساءل كيف صار عربيّاً بليغاً وهو أعجميُّ الأبوين ؟ لم يجد حلاًّ لهذا الإشكال إلا جوابين: أحدهما أن يكون اللهُ قد ألهمَ إسماعيلَ العربيةَ إلهاماً، والآخرُ أن يكون عن طريق الممارسة والاحتكاك بالذين نزل فيهم في ديار العرب، ذلك أنّ المشاكلة من جهة الإتفاق في الطبيعة والعادة، ربما كانت أبلغَ وأوغلَ من المشاكلة من جهة الرَّحم، نعم حتى تراه أغلَبَ عليه من أخيه لأمه وأبيه، وربما كان أشبَه به خَلْقاً وخُلُقاً، وأَدباً ومذهباً، فيجوز أن يكون اللهُ تبارك وتعالى حين حوَّل اسماعيلَ عربياً أن يكون كما حوَّلَ طبعَ لسانِه إلى لسانهم، وباعَدَهُ عن لسانِ العجم، أن يكون أيضاً حوَّلَ سائرَ غرائِزِه، وسلَخَ سائر طبائعه، فنقلها كيف أحبَّ، وركَّبها كيف شاء، ثم فضَّله بعد ذلك بما أعطاه من الأخلاق المحمودةِ، واللسانِ البيِّن، بما لم يخصَّهم به، فكذلك يخُصُّه من تلك الأخلاق ومن تلك الأشكال بما يفُوقُهم ويروُقُهم، فصار بإطلاق اللِّسان على غير التلقين والترتيب"(٧٩).

أمّا يوسف الصدّيق عليه السلام فيُستدلُّ على بلاغته وقوة منطقه بإجابته الواثقة الهادئة الصادقة، غيرَ مضطربِ الجِنانِ، حين فاجأه العزيز لدى الباب مع امرأته، وهي تشير بأصابع الاتهام إلى يوسف البريء، وببراعته في استمالة قلب السجينين، إذ استغلّ فرصة السؤال عن الرؤيا للحديث عن التوحيد وخطورة الشرك، وبحصافته في تبرئة ذمته من التهمة الأخلاقية على أعين الناس ليخرج من السجن طيّبَ السُمعةِ، مرفوعَ الرأس، محفوظَ الشرفِ، وبتلطفه في محاورة إخوته حين دخلوا عليه في القصر الملكي فعرفهم وهم له منكرون.

وكان نبي الله شعيب عليه السلام قد أوتي من حسن البيان وحلاوة اللسان وجمال الكلام وبراعة الحجة وإتقان الحوار ما جعله اشتُهِر بخطيب الأنبياء، أخرج الحاكم عن ابن اسحاق أنَّه قال: وَشُعَيْبُ بْنُ مِيكَائِيلَ النَّبِيُّ عليه السلام بَعَثَهُ اللَّهُ نَبِيًّا، فَكَانَ مِنْ خَبَرِهِ وَخَبَرِ قَوْمِهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ α إِذَا ذَكَرَهُ قَالَ: "ذَاكَ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ"[٨٠]، لحسن مراجعته قومه، وقوة حجته[٨١]، وفصاحة عبارته، وجزالة موعظته[٨٢].

يقول أبو حيان الأندلسي (٧٤٥هـ): "وكان يقال لشعيب عليه السلام خطيبُ الأنبياء لحُسْن مراجَعَته قومَه"[٨٣]، ويقول ابن عاشور (١٣٩٣هـ): "إنَّ شعيباً عليه السّلام كان مِقوالاً فصيحاً، ووصفه النبيُ بأنه خطيبُ الأنبياءِ"[٨٤].

ومن دلائل فصاحته خطبته التي ألقاها في قومه، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ

وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾[٨٥].

في الخطبة كلّ عناصر التأثير الجيد وكلُّ مقوماتِ الإلقاء الرائع من براعةِ الاستهلال، وحسنِ التلطف والانتقال، والجمعِ بين الترغيب والترهيب، ومن لباقةٍ المتكلم حين لا يكترث باستفزاز المستهزئين، ولا يطيشه خفة عقول المتلقّين، ليحافظ على اتزانه أثناء الإلقاء، ومن التذكيرِ بالتأريخ وفلسفة سقوط الحضارات، والاكتفاءِ الذاتي، والثقة بالمبدأ، والختامِ بأقوى صيغ الإنذار، لقد بنى خطبته على المنطق البليغ، وعلى البسط الممدوح للكلام، وعلى الإشفاق في النصح، و"هكذا نرى أنَّ شعيباً عليه السلام قد جادل قومه بالتي هي أحسن، وحاوَرَهم وناقَشَهم بأسلوبٍ جمعَ ألواناً من الهدايات، ووضع كلَّ كلمةٍ قالها لهم في الموضع الذي يناسبها، وخاطبَهم بأحكمِ منطقٍ وأبلغِ بيانٍ، ولكنهم قابلوا كلَّ ذلك بالكلام القبيح، وبالتطاول والغرور، وبالتهديد السافر، والوعيد الظاهر"[٨٦].

يقول أبو حيّان الأندلسي (٧٤٥هـ) في تعقيبه على قول شعيب عليه السلام: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي** ﴾: "هذه مراجعةٌ لطيفةٌ، واستنزالٌ حَسَنٌ، واستدعاءٌ رقيقٌ، ولذلك قال فيه رسول الله α: ذاك خطيبُ الأنبياء، وهذا النوع يسمّى استدراجَ المخاطَب، عند أرباب علم البيان، وهو نوعٌ لطيفٌ غريب المغزى، يُتَوصَّلُ به إلى بلوغ الغرض"[٨٧]، ويستمر أبو حيان في ذكر معالم بلاغة شعيب في خطبته، فيقرّر أن "الذي حَاوَرَهُم به مِنَ الكلامِ وخاطَبَهُم به هو من أفصَحِ الكلام وأجلِّه وأدلِّه على معانيه، بحيث يفقَهُه مَنْ كان بعيدَ الفَهْمِ، فضلاً عن الأذكياء العقلاء"[٨٨]، ويعدّد ابن عجيبة الفاسي (١٢٢٤هـ) الخصائص الموضوعية التي اشتملت عليها تلك الخطبة، ثم يقول: "ولأَجلِ هذه الخطبة سُمّي شعيب خطيبُ الأنبياءِ"[٨٩]، يقول الأستاذ الباحث محمد كرد علي: "إنَّ الخطابةَ صناعةُ الرسل عليهم السلام، لأنّهم يَدْعُون إلى الله، ويُكلَّفون بارشاد الخلق، وهذا يقتضي البلاغة والبيان المتناهي"[٩٠].

وإذ بعث الله موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه استعظم الأمرَ وتهيّبَ الموقفَ، فشكا إلى ربّه ما ابتلاه به من عقدةٍ في لسانه، ومن حُبْسةٍ في بيانه، فخاف أن يكون لتلك الآفة آثارها السلبية في التبليغ، فدعا بما حكى عنه القرآن الكريم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[٩١]، لأنّ هذه الحبسة تمنعه عن الاسترسال في التبليغ، وتوقفه عن الاستدلال بالحجة والدليل، وتعجزه عن الردّ على الشبهات، وتشوّه صورتَه في المواقف الخطابية، وتجعله عُرضةً لاستخفاف فرعون وحاشيته، وقد حدث هذا فعلاً، حين استهان فرعون بموسى عليه السلام واتّخذ من رُتَّةِ منطقه طعناً في أهليته للرسالة والتبليغ عن ربّه، فنادى في قومه قائلاً: ﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾[٩٢].

يقول سيد قطب في بيان آثار هذه العقدة في شخصية الداعي والوسط الدعوي: "ومن شأن هذه الحبسة أن تُنشِئ حالةً من ضيق الصدر، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام، وتزداد كلما زاد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقاً، وهكذا، وهي حالةٌ معروفة، فمن هنا خشي موسى عليه السلام أن تقع له هذه الحالة، وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبّار كفرعون، فشكا إلى ربّه ضعفَه وما يخشاه على تبليغ رسالته، وطلب إليه أن يوحي إلى هارون أخيه، ويُشركَه معه في الرسالة اتقاءً للتقصير في أداء التكليف، لا نكوصاً ولا اعتذاراً عن التكليف، فهارونُ أفصحُ لساناً، ومن ثمَّ هو أهدأُ انفعالاً، فإذا أدركتْ موسى حبسةٌ أو ضيقٌ نهضَ هارونُ بالجدل والمحاجَّة والبيان"[٩٣].

ويقول ابن عاشور (١٣٩٣هـ) في توضيح معنى انطلاق اللسان ومفهومه المجازي وأنّه يدلّ على الشكوى من العجز عن الكلام الفصيح الصحيح: "والانطلاق حقيقته مطاوع أطلقه إذا أرسله ولم يحبسه، فهو حقيقة في الذهاب، واستُعير هنا لفصاحة اللسان وبيانه في الكلام، أي ينحبس لساني فلا يبين عند إرادة المحاجة والاستدلال، وعطفُهُ على (يضيق صدري)، يُنبِئ بأنّه أراد بضيق الصدر تكاثرَ خواطرِ الاستدلال في نفسه على الذين كذّبوه ليقنعهم بصدقه، حتى يحسَّ كأنّ صدرَه قد امتلأ، والشأنُ أن ذلك ينقص شيئاً بعد شيء بمقدار ما يُفصِح عنه صاحبُه من إبلاغه إلى السامعين، فإذا كانت في لسانه حُبسةٌ وعِيٌّ بقيتِ الخواطرُ متلجلجةً في صدره"[٩٤].

ولهذا كلّه دعا موسى عليه السلام ربَّه أن يمُنَّ عليه بالبيان الشافي، وأن يحلّ عقدتَهُ ويُطلِق لسانه ويفكَّ حبسته ويسدّد حجّته، حتى يفقهوا قوله فيمتثلوا أمره، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ ﴾ [٩٥].

وما أُمِر موسى عليه السلام بتبليغه أمورٌ جِسَامٌ، وتكاليفٌ عِظامٌ، "وهو الذي لا يكاد يُبين عن آيات الهدى، ودلائل الحق، لأنها فيّاضةٌ زاخرةٌ، تمتلئ بها مشاعرُه، وتجيش بها خواطرُه، وتملك عليه عقله وقلبه، وهو لا يملك أن يكون قويَّ التعبير، رصينَ الحجّة، مُفوّهَ المنطق، سريَّ البيان، لأنّ شأنه شأن خطير، وأمره أمر كبير، فدعا ربه فقال: ربّ اشرحْ لي صدري، حتى ينفسح لتحمّل أعباء هذا الأمر العظيم، ويَسِّر لي أمري، برفع الموانع والصعاب، واحلُلْ عقدةً من لساني أكُنْ ناصِعَ البيان، سديدَ الكلام، حتى ينفذَ بلاغي إلى نفوسهم، ويتسرّبَ إلى قلوبهم"[٩٦].

يقول البيضاوي (٦٨٥ هـ) في تعليل هذا الطلب من موسى عليه السلام: "فإنما يحسن التبليغ من البليغ"[٩٧]، ويرى الزمخشري (٥٣٨هـ) في تنكير العقدة في الآية ملحظاً بلاغياً يكشف رغبة موسى الجزئية في إطلاق لسانه، وذلك في قوله: "وفي تنكير العقدة ـ وإن لم يقل عقدة لساني ـ : أنّه طَلَبَ حلَّ بعضِها إرادةَ أن يُفهَم عنه فهماً جيداً، ولم يطلب الفصاحةَ الكاملة"[٩٨]، وكأنّه يظنّ أن طلب أعلى مراتب الفصاحة وطلاقة اللسان كلّه ليس بكثير فضلٍ، ولا يليق بأدب الأنبياء في الدعاء، وإنما يكفي ما يقضي حاجته، بيد أنه يمكن حمل التنكير على دلالة التقليل في الآية ليُحمل المعنى على أن العقدة في لسانه كانت قليلة المدى وقليلة الفترات وقليلة الأثر، لكن رغبة موسى عليه السلام في تمام البيان، وغاية الفصاحة، لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، جعلته يطلب من ربه أن يزيلها، ويؤيدنا في ذلك ما تبنّاه أحدُ المحدثين من "أن العقدة التي كانت في لسان موسى عليه السلام كانت لا تُمكِنه من التبيين الواضح، والتفهيم الكامل، يدلّ على ذلك أنّه علّل دعاءه برغبته في الوصول بقومه إلى غاية سامية وهي الفقه، والفقه أعلى درجة من الفهم، فالفقه يحتاج إلى كمال البيان، وتمام الوضوح، حتى يقرِّب لهم البعيدَ، ويجلوَ لهم

الغامضَ، فقد كان في لسان موسى عليه السلام القدرة على أن يفهمهم، لكن ليس عنده القدرة على أن يجعلهم يفقهون"[٩٩].

ويقول ابن عاشور (١٣٩٣هـ) مبيّناً فحوى الدعاء وأبعادها المجازية: "ثمَّ سألَ سَلامةَ آلة التبليغ، وهو اللسان بأن يرزقه فصاحةَ التعبير والمقدرةَ على أداء مراده بأوضح عبارة، فشبَّه حُبْسةَ اللسان بالعُقدة في الحبل أو الخيط ونحوهما، لأنها تمنع سرعة استعماله، والعقدة: موضع ربط بعض الخيط أو الحبل ببعض آخر منه.... أُطلِقت على عُسْر النُّطق بالكلام أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة لعدم تصرُّف اللسان عند النطق بالكلمة، وهي استعارة مصرحة، ويقال لها حُبسةٌ، يقال: عَقِد اللسان كفَرِح، فهو أعقدُ: إذا كان لا يُبين الكلامَ، واستعار لإزالتها فعل الحلّ المناسب العقدة على طريقة الاستعارة المكنية"[١٠٠].

ورغبةً من موسى عليه السلام في تمام الغلبة بالحجة، واحتياطاً لشأن الدعوة، وحرصاً على إشراك أهله في الخير، طلب من ربّه أيضاً أن يقوّي ظهرَه ويعلي كلمته ويشدّ أزره بأخيه هارون عليه السلام، لأن هارون عليه السلام أفصح منه لساناً، وأبلغ منه بياناً، وأهدأ منه أعصاباً، وأقدر منه احتجاجاً، قال تعالى يحكي عن موسى عليه السلام دعاءه: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾[١٠١].

وإنّما سأل موسى عليه السلام ربَّه أن يعينه بأخيه هارون ليقوم مقامه إذا قُتِل، ولينوب عنه في الكلام اذا انعقد لسانه، وضاق صدره، و"ليتكلمّ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ"[١٠٢]، حيث "كان هارون عليه السلام فصيحاً واسعَ الصَّدر"[١٠٣]، يقول ابن عاشور (١٣٩٣هـ): "وَخَصَّ هَارُونَ عليه السلام لِفَرْطِ ثِقَتِهِ بِهِ، وَلِأَنَّهُ كَانَ فَصِيحَ اللِّسَانِ مِقْوَالًا، فَكَوْنُهُ مِنْ أَهْلِهِ مَظِنَّةُ النُّصْحِ لَهُ، وَكَوْنُهُ أَخَاهُ أَقْوَى فِي الْمُنَاصَحَةِ، وَكَوْنُهُ الْأَخَ الْخَاصَّ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ عِنْدَهُ بِأَصَالَةِ الرَّأْيِ"[١٠٤].

أَجَلْ لم يكن موسى عليه السلام أنانياً يحب الخير لنفسه فحسب، بل كان أنفعَ أخٍ لأخيه في الدنيا، ودعوتُهُ لأخيه هارونَ بالنّبوة أعظمُ شفاعةٍ عرفَها التأريخُ وأشاد بها القرآنُ الكريم، وأنّ الذي أهّله لهذه المرتبة فصاحتُهُ، وقدرتُه على البيان، وكياستُه في تصريف وجوه الكلام، ففصاحةُ هارون عليه السلام، ووضوحُ عباراتِه، وانطلاقُ لسانِه، رفعَتْهُ لمرتبة الأنبياء، وهي مؤهِّلٌ كبيرٌ للدعوة، والتأثير في الناس، وهارونُ عليه السلام لم يكن أقوى من موسى عليه

السلام بَدَناً، ولا أرفعَ منه نَسَباً، ولا أجملَ منه وجهاً، وإنَّما كان أفصحَ منه لساناً، فاستجاب الله له، ومنَّ على هارون عليه السلام وجعله نبيّاً[١٠٥]، وبإشراك أخيه في الدعوة وبحلِّ عقدته من لسانه، أتمَّ اللهُ نعمتَه على موسى عليه السلام، فآتاه سُؤلَه كلَّه وحقّقَ مطالبَه جميعاً، فقال: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [١٠٦]، و"حين يكتمل ما لدى موسى عليه السلام من شخصية قوية، وعلمٍ واسع، وحجة دامغة، بما لدى هارون عليه السلام من طلاقةِ لسانٍ في حسن العرض والصياغة البليغة، فهذا كلُّ ما هو في حاجة إليه، وهو أيضاً كلُّ أو خيرُ ما يحتاج إليه أيُّ داعية، ولم يكن ما ينقص موسى عليه السلام ـ كما يفهم من أغلب الروايات ـ شيئاً يتعلق بالعجز عن النطق أو عن وضوح الألفاظ نفسها، وإنما يتعلق بطلاقة اللسان في استرساله ومقدرته السريعة المتلاحقة ليس على توضيح الكلمات ونطقها، وإنما على تنسيقها وعرضها بالصياغة والإلقاء الجذّاب المؤثر"[١٠٧].

وتوجيه الزمخشري (٥٣٨هـ) لمفهوم التصديق الذي علّل به موسى عليه السلام مطلبه طريفٌ ودقيقٌ، إذ يقول: إن موسى عليه السلام لم يكن يحتاج إلى فصاحة أخيه هارون عليه السلام ليقول للناس إذا كذّبوه: صدق أخي موسى، فهذا القدر يستوي فيه من يُضرَب به المثلُ في البلاغة وهو سحبانُ، ومن يُضرَب به المثل في العيّ وهو باقِلُ، وإنما يحتاج إلى فضل فصاحته ليلخّص بلسانه الحق، ويبسط فيه القول، ويجادل به الكفّارَ، كما يفعل الرجل المِنْطيق ذو العارضة، فذلك جارٍ مجرى التصديق المفيد، كما يُصدَّق القولُ بالبرهان، أو يحتاج إلى فصاحة هارون ليصل جناح كلامه بالبيان حتّى يُصَدّقه الذي يخاف تكذيبه، فأُسنِد التصديق إلى هارون عليه السلام إسناداً مجازياً، لأنه كان سبباً فيه[١٠٨].

وللجاحظ (٢٥٥ هـ) تعليلٌ لطيف لِما طلبه موسى عليه السلام من انطلاق لسانه، ومن إرسال هارون معه معيناً ووزيراً، فقال: "وقال موسى عليه السلام : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [١٠٩]. وقال: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [١١٠]، رغبةً منه في غاية الإفصاح بالحجّة، والمبالغة في وضوح الدَّلالة، لتكونَ الأعناقُ إليه أميلَ، والعقولُ عنه أفهمَ، والنفوسُ إليه أسرعَ، وإن كان يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقّة"[١١١]، فمن آثار اللسان الفصيح والقول البليغ في المدعوّ إقامةُ الحجّة عليه، ومزيدٌ من الايضاح، وسرعةُ

الاستجابة، وشدُّ الأعناق واستمالة القلوب، ومخاطبةُ العقول، وشدّة التأثيرُ في الوجدان والنفوس.

ومن شواهد حكمته في الدعوة وحسن كلامه هذا الرفق في العرض، وهذا التهذيب في التقديم، قال تعالى: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [١١٢]، ففي قوله: (هل لك إلى أن تزكّى) اختصار واعٍ لكثير من مقدمات الكلام، وايجازٌ لدواعي الامتناع عن إثارة الغضب، إذ "كان يكفي أن يقول له: أدعوك أن تزكّى، او يُكرمه قليلاً بصيغة العرض الاستفهامي: هل تتزكّى، أو يُكرمه أكثر فيقول له: هل ترى أن تتزكّى، أو نحو ذلك، لكنّ الله علَّم موسى عليه السلام أن يفرش لفرعون مقدمات تكريم أكثر تناسب مكانة فرعون في قومه، وقد جاء التعبير عن هذه المقدمات الطويلة نسبياً بقوله: (هل لك إلى أن تزكّى)، فأطال في المقدمات بحسب عادات القوم، واختصر المطلوب الأساسي، فقال: (تزكّى) بدل (تتزكّى)"[١١٣].

وقال تعالى فيما امتنّ به على نبيّه داود عليه السلام: ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [١١٤]، ومن جملة ما فُسّر به لفظ (الحكمة) في الآية: النبوةُ، وسَعةُ العلم، وصالحُ العمل، وحسنُ المنطق[١١٥]، ومما فُسِّر به (فصل الخطاب) الكلامُ البليغُ الفاصلُ بين الحقِ والباطل، وبين الصَّواب والخطأ، والإيجازُ في البيانِ بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل[١١٦]، والكلامُ المُلَخَّصُ الذي يُنبِّهُ المخاطَبَ على المَرام من غير التباسٍ، لِما رُوعِي فيه من مَظانِّ الفَصل والوَصلِ، والعطفِ والاستئناف، والإظهار والإضمار، والحذف والتَّكرار[١١٧].

يقول فخر الدين الرَّازي (٦٠٤هـ) مشيراً إلى جمالية النسق اللغوي للآية ومُرجِحاً الرأي الذي يميل إلى حمل عبارة (فصل الخطاب) على بلاغة المنطق وخلابة اللسان وجمال التعبير: "ولمّا بيَّن اللهُ تعالى كمالَ حالِ جوهرِ النّفس النُّطقية التي لداود عليه السلام بقوله: (وآتَيناهُ الحِكْمةَ) أردفَهُ بِبيانِ كَمالِ حَالِهِ في النُّطقِ واللَّفظِ والعِبارة، فقال: (وفَصْلَ الخِطابِ)، وهذا الترتيب في غايةِ الجَلالة، ومِنَ المفسّرين مَنْ فسَّر ذلك بأن داودَ أولُ مَن قال في كلامه: أمَّا بعدُ، وأقولُ حقّاً: إنَّ الذين يتَّبِعون أمثالَ هذه الكلمات فقد حُرِموا الوقوفَ على معاني كلام الله تعالى حِرمَاناً عظيماً، واللهُ أعلمُ، وقولُ مَنْ قال: المرادُ معرفةُ الأمورِ التي بها يُفصَل بين

الخصوم، وهو طلبُ البيِّنة واليمين فَبَعيدٌ أيضاً، لأنَّ فَصْلَ الخِطابِ عبارةٌ عن كونِهِ قادراً على التَّعبير عن كلِّ ما يَخْطُر بِالبالِ، ويَحْضُر في الخيال، بحيث لا يختلط شيءٌ بشيء، وبحيث يَنفَصِل كلُّ مَقامٍ عنْ مقام، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام"[١١٨]،

ورجّح أبو حيان الأندلسي (٧٤٥هـ) أن يكون (فصل الخطاب) مظهراً من مظاهر بلاغة المقال، وهو المساواة باصطلاح علماء البلاغة اليوم، فقال: "ويجوزُ أن يُرادَ الخطابُ القصدُ الذي ليس فيه اختصارٌ مُخِلٌّ ولا إشباعٌ مُمِلٌّ، ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله α : فَصْلٌ لا نـزْرٌ ولا هَـذْرٌ[١١٩]، ولمّا كان تعالى قد كَمَّلَ نفسَ نبيِّه داود عليه السلام بالحكمة أردَفَهُ ببيان كَمالِ خَلْقِه في النّطقِ والعبادة، فقال: وفصلَ الخِطاب"[١٢٠].

ويجزم ابن عاشور (١٣٩٣هـ) بأنّ المراد من (فصل الخطاب) بلاغةُ الكلام حاملاً إيّاه على المعنى المجازي بقرينة العطف على لفظ (الحكمة)، إذ يقول: "وفصلُ الخطابِ: بلاغةُ الكلام، وجمَعَه للمعنى المقصود، بحيث لا يحتاج سامِعُه إلى زيادةِ تِبيانٍ، ووصَفُ القولِ بـ(الفصل) وصفٌ بالمصدر، أي فاصِلٌ، والفاصِلُ: الفارِقُ بين شيئين، وهو ضدَ الواصِلِ، ويُطلَق مجازاً على ما يميّز شيئاً عن الاشتباه بضدّه، وعطفُهُ هنا على الحكمة قرينةٌ على أنَّه استُعمِل في معناه المجازي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾[١٢١]، والمعنى: أن داود عليه السلام أُوتِي من أَصالةِ الرأي وفَصاحةِ القولِ ما إذا تكلَّمَ جاء بكلامٍ فاصلٍ بين الحق والباطل شأنَ كلامِ الأنبياءِ والحكماءِ، وحسبُك بكتابه الزبور، المسمَّى عند اليهود بالمزامير، فهو مَثَلٌ في بلاغة القول في لغتهم"[١٢٢]، ثمّ يردُّ على مَن ذهَبَ إلى غير هذا الرأي مستعيناً في ردّه بحقائق لغوية وتاريخية، ليخلص منه إلى عقد موازنة بديعة بين ما أوتي داود عليه السلام وبين ما أوتي نبيُّنا محمد(صلى الله عليه وسلم) ، ومِنْ بين تلك النِّعَمِ نعمةُ الفصاحةِ والبلاغة، فقال: "واعلَمْ أنَّ محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد أُعطِي من كلِّ ما أُعطِي داودُ (عليه السلام) فكانَ أوَّاباً، وهو القائلُ: إني ليُغانُ على قَلْبِي فَأَستغفِرُ اللهَ في اليومِ سبعين مرةً[١٢٣]، وسُخِّرَ له جبلُ حِرَاءٍ على صُعُوبَةِ مسَالِكِه، فكان يتحنَّثُ فيه إلى أن نزلَ عليه الوحيُ وهو في غارِ ذلك الجبلِ، وعُرِضَت عليه جبالُ مكةَ أنْ تصيرَ له ذَهَباً، فأبى واختار العبوديةَ، وسُخِّرتْ له من الطَّيرِ الحَمامُ فَبَنَتْ وَكْرَها على غار ثَوْر مدَّةَ اختفائِه

بِهِ مع الصّديقِ في مسيرِهما في الهِجرة، وشَدَّ اللهُ مُلكَ الإسلامِ لهُ، وكفَاهُ عدوَّه من قَرابتِهِ مثل أبي لَهبٍ وابنِه عُتبة، ومن أعدائه مثل أبي جَهلٍ، وآتاه الحكمةَ، وآتاهُ فَصْلَ الخِطَابِ، قال: أُوتِيتُ جَوامعَ الكَلِمِ واخْتُصِرَ لي الكَلامُ اختِصَاراً[١٢٤]، بَلْهَ ما أُوتِيَهُ الكتابُ المعجزُ بلغاءَ العربِ عن مُعارضَتِه"[١٢٥].

والجاحظ ببيانه الساحر يفصل القولَ في مقتضيات الحكمة وموجبات فصل الخطاب، فيقول: "فجمعَ له بالحكمةِ البراعةَ في العقلِ، والرَّجاحةَ في الحِلْمِ، والاتساعَ في العلم، والصوابَ في الحُكم، وجمعَ له بفصلِ الخطابِ تفصيلَ المُجْملِ، وتلخيصَ الملتَبس، والبصرَ بالحزِّ في موضِعِ الحزِّ، والحسمَ في موضع الحسمِ"[١٢٦].

ومن المحدثين من حملَ عبارة (فصل الخطاب) على معنى الحجاج والإقناع والقدرة على ممارستهما[١٢٧]، بوصف الحجاج جوهر البلاغة وروحها في إحداث التأثير في المتلقي وتليين عريكة السامع.

وورد في الحديث النبوي الشريف أنه شبَّه ما أُوتِي أبو موسى الأشعري من حسن الصوت، وجمال الإيقاع، وحلاوة النغمة في قراءة القرآن الكريم بمزامير آل داود (عليه السلام) الذي إليه المنتهى في تطريب الصوت بالقراءة، فقال لمّا سمعه يقرأ القرآن: "لقد أُوتِيَ هذا مِزْماراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ داودَ عليه السَّلامُ"[١٢٨]، ويتراءى لنا من وراء هذا التعليق ذوقٌ رفيع كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يمتلكه في التمييز بين طبقات الأصوات ومنازل القرّاء في الأداء الموسيقي، وفيه إشارةٌ إلى البعد البياني والبلاغي الذي اشتملت عليه مزامير داود عليه السلام ممّا جعلها صالحاً للترنّم والتغنّي، "ففي بعض مزامير آل داود (عليه السلام) التي نقرؤها في كتب أهل الكتاب ما يدلّ على أنّ أصولها كانت أدباً رفيعاً من الترانيم والدعاء والصلوات والتسبيح والمناجاة لله تعالى"[١٢٩].

كلُّ هذا العرض يبّينُ أن داودَ عليه السلام كان على نصيبٍ موفور من بلاغة اللسان، وحسن الكلام، وتنسيق الخطاب، وسداد الرأي، ورجاحة العقل، وحسن الصوت، لإبلاغ الرسالة، وإقامة الحجة، وإفحام الخصم، وإصابة القضاء.

وكان سليمان عليه السلام وارثاً لأبيه داود عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾[١٣٠]، وليست هذه الوراثة في النبوة فقط، وإنّما كان في قوة خطابه، وفصاحة

لسانه، وكثرة علمه، ودقة فهمه، وحكمته في القضاء بين الناس بمقاله الوجيز أيضاً، ويُستدَّلُ على ذلك بمواقفه ومحاوراته التي سجّلها القرآن الكريم، ثمّ إنّ الله علَّمَه منطقَ الطَّير، وأفهَمَه كلامَ النمل، وجعل الجنَّ يعملون بين يديه، ووهبه مُلكاً كبيراً، فلا يُعقَل في حق من يملك كلَّ هذا أَنْ لا يملك بياناً كافياً يُدبِر به شؤون حكمه، ويُشدِّد به بنيانَ مُلْكِه، فمنذ قديم الزمان كان تمامُ البيان، وطلاقةُ اللسان شرطاً من شروط الزعامة والإدارة والسيادة، يقول الجاحظ: "وعلَّم اللهُ سليمانَ منطقَ الطير، وكلامَ النَّمل، ولغاتِ الجنِّ، فلم يكن عزَّ وجلَّ ليُعطيَهُ ذلك ثمَّ يَبْتَلِيه في نفسِهِ وبيانِهِ عن جميع شأنه، بالقلة والمَعْجَزَةِ، ثم لا تكونُ تلك القلّةُ إلا على الإيثارِ منه للقلّة في موضعها، وعلى البعد من استعمال التكلُّف، ومناسبةِ أهلِ الصَّنْعَة، والمشغُوفينَ بالسُمْعَة، وهذا لا يجوز على الله"(١٣١).

وفي تعاليم عيسى عليه السلام بلاغةٌ رفيعةٌ في ضرب الأمثال وسوق الحجج البيانية لإقناع العقل وإثارة العاطفة وإمتاع الوجدان، يقول حبنكة الميداني: "وإنّ في حِكَم عيسى عليه السلام وأمثاله التي كان يضربها للناس آداباً رفيعة أيضاً، وكانت أمثاله ذات تأثير عظيم في الناس"(١٣٢)، فمن روائع أمثاله في توزيع الناس إلى طبقات في شأن الهداية قولُه: "خرجَ الزّارعُ لِيَزرَعَ بِذارَه، وبينما هو يزرَعُ، وَقعَ بعضُ البِذارِ على المَمَرَّاتِ، فَداسَتْهُ الأَقدامُ، والتَهَمَتْهُ طيورُ السَّماءِ، ووقعَ بعضُهُ على الصَّخْرِ، فلمَّا طَلَعَ يَبِسَ لأنَّه كانَ بِلا رُطُوبةٍ، ووقعَ بعضُهُ في وَسَطِ الأَشواكِ، فَطَلَعَ الشَّوكُ معه وخَنَقَهُ، وبعضُ البِذارِ وقَعَ في الأرض الصَّالِحَة، ولمَّا نَبَتَ أَنْتَجَ ثَمَراً مئةَ ضِعْفٍ"(١٣٣)، ثمَّ شرح عيسى عليه السلام لتلاميذه هذا المثل فأبان لهم أَنّ "البِذارَ هو كَلِمَةُ اللهِ، وما وَقَعَ على المَمَرَّاتِ هُمُ الذين يَسْمَعُون الكَلِمَةَ، ثمَّ يأتي إبليسُ ويَخْطِفُ الكَلِمَةَ مِنْ قُلُوبِهِم لئلاَّ يُؤْمِنُوا فيَخْلُصُوا، وما وقَعَ على الصَّخرِ هُمُ الذينَ يَقْبَلُونَ الكلمةَ بِفَرَحٍ لدى سَمَاعِها، وهؤلاءِ لا أصلَ لهم، فيؤمنونَ إلى حينٍ، وفي وقتِ التَّجرِبَةِ يتراجعونَ، وما وَقَعَ حيث الأشواكُ هُمُ الذينَ يسمعون ثمَّ يَمْضُونَ فَتَخْنُقُهم هُمومُ الحياةِ وغِناها ولذّاتُها، فلا يُنْتِجُونَ ثَمَراً ناضِجَاً، وأما الذّي وقعَ في الأَرْضِ الجَيّدةِ، فهُمُ الذين يَسْمَعُونَ الكلمةَ ويَحْفَظونَها في قلبٍ جيّدٍ مستقيمٍ، ويُنْتِجُونَ ثَمَراً بالصَّبْرِ"(١٣٤).

ومضمون المثل المضروب شبيهٌ[١٣٥] بما ضربه الرسول ﷺ في أمر الهداية فيما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"[١٣٦]، ولعلَّ أديب العربية الزيّات يلمح إلى هذا التقارب في الرؤية وفي لغة الأداء حين يقول: "وللرسول ﷺ قدرةٌ عجيبةٌ على التشبيه والتمثيل وإرسالِ الحكمةِ، وتلك ميزةُ الرسل عليهم السلام مِنْ قبل ، ولا سيّما المسيح، لأن المرسلين في مقام المعلِّمين، وأنجعُ ما يكون في التعليم طريقة التمثيل والمحاورة"[١٣٧].

وأمّا بلاغة الرسول ﷺ فقد كان من العلوّ بمكان شهد لها القرآن الكريم، وامتنَّ الله بها عليه، وسمّاها وحياً إلهياً، وحكمةً عاليةً، وقولاً بليغاً، قال ـ عزَّ مِنْ قائل ـ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [١٣٨]، وقال ـ تقدّستْ أسماؤه ـ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣ ﴾ [١٣٩]، وأمره أن يخاطب المنافقين بالقول البليغ الذي يؤثر في النفوس في قوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ۝٦٣ ﴾ [١٤٠]، والقول البليغ عند فخر الدين الرازي في هذال المقام هو أن يكون "حَسَن الألفاظ، حَسَن المعاني، مشتملاً على الترغيب والترهيب، فإن الكلام إذا كان هكذا عظُمَ وقْعُهُ في النفوس"[١٤١]، وقال الشيخ محمد عبده: "في الآية شهادةٌ للنبي ﷺ بالقدرة على الكلام البليغ، وتفويضُ أمرِ الوعظِ والقولِ البليغ إليه، لأنّ الكلامَ يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين، وهي شهادةُ الله له بالحكمةِ ووضعِ الكلام في موضعه، وهذا بمعنى إيتاء الله نبيه داود عليه السلا الحكمةَ وفصلَ الخطاب، وما أُوتِيَ نبيٌّ فضيلةً إلاّ وقد أُوتي مثلُها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلَّم وعليهم أجمعين، وشهادة الله له في هذا المقام أكبر شهادة، وإنَّما آتاه الله هاتين المزيّتين على وجه الكمال بالنبوَّة والقرآنِ، ولم يكن قبل النبوّة مشهوراً بين قومه بالفصاحة والبلاغة، وإنْ كان فصيحاً بليغاً"[١٤٢].

وأَحسّ الرسول ﷺ نفسُه بهذه النعمة الكبرى فأخبر عن ذلك بقوله: "وأُوتِيتُ جوامِعَ الكَلِمِ"(١٤٣)، وقال ﷺ: "أنا أَفصَحُ العربِ، بيدَ أَنّي مِن قريشٍ، ونشأتُ في بنِي سَعدِ بن بَكْرٍ"(١٤٤).

وشهِد الصحابة الكرام بسموّ بلاغة الرسول ﷺ ، وعلوّ كعبه في البيان، وهم أقرب الناس من عهد السليقة اللغوية، وجودة القريحة، وصفاء الذهن، وألصقُ الناس بمعادن الفصاحة وبالبيئة الأدبية الرصينة، تذوّقوا الشعر العربي من أصفى منابعه، وتأثّروا ببلاغة القرآن الكريم، وتربّوا على معدن الفصاحة في البادية، إنّهم أدرى من غيرهم بالبلاغة وحقيقتها، وشهادتهم في هذا المجال ذات قيمة علمية لا يستهان بها في دنيا النقد وعالم الأدب.

روى الصحابي الجليل حنظلة الأُسَيِّديُّ أنَّه قال: "لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"(١٤٥)، وإنّما كان حنظلة وأبو بكر كذلك في حضرة الرسول ﷺ لأنه كان يقرّب بقوة بيانه صور النعيم والعذاب إلى الأذهان وكأنهما يريان رأي العين.

وقال العِرْباضُ بنُ سارية: "صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"(١٤٦)، وموطن الشاهد أن قوة كلامه وبلاغته تركتْ أثراً على وجوههم وعيونهم، وأدخلتِ الرعب في قلوبهم، وبهذا يكون الرسول ﷺ قد استولى على ظاهرهم وباطنهم، وكان الصحابة رضوان الله عليهم إذا جلسوا في حضرته "كأنَّ على رُؤُوسِهم الطَّيْرَ"(١٤٧)، تأدباً مع كلامه الشريف، وتأثّراً بمقاله البليغ.

ثمّ أنّ بلاغة الرسول ﷺ أصبحت محطَّ أنظار العلماء والأدباء والنقاد قديماً وحديثاً، فأفاضوا القول في الثناء عليها، وبسطوا الكلام في أسبابها، وأجادوا التعبير عن خصائصها وسماتها، قال الجاحظ: "وهو ـ أي كلام النبي ﷺ ـ الكلامُ الذي قلَّ عَدَدُ حُروفِه، وكَثُر عددُ مَعانيه، وجَلَّ عنِ الصَّنعة، ونُزِّهَ عن التكلُّفِ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (١٤٨) ، فكيف وقد عابَ التشديقَ، وجانبَ أصحابَ التقعيبِ، واستعمل المبسوطَ في موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر، وهجرَ الغريبَ الوحشيَّ، ورغِب عن الهجينِ السوقي، فلم ينطِقْ إلا عن ميراثِ حكمةٍ، ولم يتكلَّمْ إلا بكلام قد حُفَّ بالعِصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق، وهو الكلامُ الذي ألقى اللهُ عليه المحبَّةَ، وغشَّاه بالقَبول، وجمع له بين المَهابةِ والحَلاوةِ، وبين حُسْنِ الإفْهَام، وقلةِ عددِ الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقِلَّةِ حاجة السامع إلى معاوَدتِه، لم تسقُط له كلمةٌ، ولا زلَّت به قدمٌ، ولا بارَتْ له حجَّةٌ، ولم يقُمْ له خصمٌ، ولا أفحَمَهُ خطيبٌ، بل يبُذُّ الخُطَبَ الطِّوال بالكَلِم القِصَار، ولا يلتَمِسُ إسكاتَ الخَصْمِ إلا بما يَعرِفُه الخَصْمُ، ولا يَحْتَجُّ إلا بالصِّدقِ، ولا يطلُبُ الفَلْجَ إلا بالحقّ، ولا يستعينُ بالخِلابَة، ولا يستعملُ الموارَبةَ، ولا يهمِزُ ولا يلْمِزُ، ولا يُبْطِيء ولا يَعْجَل، ولا يُسْهِبُ ولا يَحْصَر، ثم لم يسمَعِ النّاسُ بكلامٍ قطُّ أعمَّ نفعاً، ولا أقصدَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرمَ مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أَسْهَلَ مَخْرجاً، ولا أفْصَحَ معنًى، ولا أبينَ في فحوًى، من كلامه صلّى الله عليه وسلّم كثيراً"(١٤٩)، وأهمية كلام الجاحظ تظهر إذا علمنا أنّه

أوّلُ أديب عربيّ وصف بلاغة الرسول ﷺ بهذه اللغة الرفيعة وبهذه الدقة وبكل هذه الخطوط العريضة، وأنّه كان ناقداً كبيراً يميّز الحسن من القبح، والراجحَ من المرجوح، والفاضلَ من المفضول في الخطاب، وأنّه يكاد يضع قواعد البلاغة وأصولها من خلال وصف كلام الرسول ﷺ.

وأثنى القاضي عياض على بلاغته ﷺ فقال: "وَأَمَّا فَصَاحَةُ اللِّسَانِ، وَبَلاغَةُ الْقَوْلِ، فَقَدْ كَانَ ﷺ مِنْ ذَلِكَ بِالْمَحَلِّ الْأَفْضَلِ وَالْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُجهَلُ سَلَاسَةَ طَبْعٍ، وَبَرَاعَةَ مَنْزِعٍ، وَإِيجَازَ مَقْطَعٍ، وَنَصَاعَةَ لَفْظٍ، وَجَزَالَةَ قَوْلٍ، وَصِحَّةَ مَعَانٍ، وَقِلَّةَ تَكَلُّفٍ، أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَخُصَّ بِبَدَائِعِ الْحِكَمِ، وَعُلِّمَ أَلْسِنَةَ الْعَرَبِ، يُخَاطِبُ كُلَّ أُمَّةٍ مِنْهَا بِلِسَانِهَا، وَيُحاوِرُهَا بِلُغَتِهَا، وَيُبَارِيهَا فِي مَنْزَعِ بَلَاغَتِهَا، حَتَّى كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْأَلُونَهُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ عَنْ شَرْحِ كَلَامِهِ وَتَفْسِيرِ قَوْلِهِ، ومَنْ تَأَمَّلَ حَدِيثَهُ وَسِيَرَهُ عَلِمَ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَهُ"(١٥٠).

ونختم شهادات أئمة الدين وأساطين الأدب بقول حُجة العرب وأديب العصر مصطفى صادق الرافعي في الإشادة ببلاغة المصطفى ﷺ وسياستها النفسية، إذ يقول: "هذه هي البلاغةُ الإنسانيةُ التي سجدتِ الأفكار لآيتها، وحسرتِ العقولُ دون غايتِها، لم تُصْنَعْ وهي من الإحكَام كأنَّها مصنوعةٌ، ولم يُتكلَّف لها، وهي على السهولة بعيدةٌ ممنوعة، ألفاظُ النُّبوة يعمُرها قلبٌ متصلٌ بجلال خالقه، ويصقُلها لسانٌ نزلَ عليه القرآنُ بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله وإن لم يكن لها منه دليلٌ فقد كانتْ هي من دليله، مُحكمَةُ الفُصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفةُ الفضول، حتى ليس فيها كلمةٌ مفضولةٌ، وكأنَّما هي في اختصارها وإفادتها نبضُ قلبٍ يتكلَّم، وإنما هي في سُمّوها وإجادَتِها مظهرٌ من خواطره ﷺ، إنْ خَرَجَتْ في الموعظةِ قلتَ أنينٌ من فؤادٍ مَقرُوحٍ، وإن راعَتْ بالحِكمةِ قلتَ صورةٌ بشريةٌ من الرُّوح... وهي البلاغة النبوية، تعرف الحقيقةَ فيها كأنها فكرٌ صريحٌ من أفكار الخليقة؛ وتجيء بالمجاز الغريب فترى من غرابته أنه مجاز في حقيقة، وهي من البيان في إيجاز تتردد فيه عَينُ البليغ فتعرفه مع إيجاز القرآن فرعين... على أنه سواء في سُهولة إطماعه؛ وفي صعوبة امتناعه؛ إن أخذ أبلغُ الناسِ في ناحيته، لم يأخُذْ بناصِيتِه، وإن أقدَمَ على غير نظرٍ فيه رجَعَ مُبْصِراً، وإن جَرَى في مُعَارضَتِه انتهى مُقْصِراً"(١٥١).

وخلاصة الكلام فقد كان الرسول ﷺ على أعلى درجات الفصاحة في كلامِهِ، وبلاغتُهُ تأتي في المرتبةِ الثانية بعد بلاغةِ القرآن الكريم، ومن مظاهرِ بلاغته أخذُه بمجامع القلوب، وتأثيرُه في النفوس في أقصر الطرائق وأقربها، وإيجازُه في التعبير مع ثراء المعاني وقوة الأفكار، وصدورُه عن فيض الخاطر وعفو البديهة من غير تصنّع ولا تكلّف، وخلوُّ منطقه من عيوب النطق ومن الفضول والحشو، ومعرفتُه بلغات العرب ولهجاتها، ومراعاةُ أحوال المخاطبين، واستعانتُهُ بالوسائل التصويرية من ضربِ الأمثال وسوقِ القصص وتقريبِ المجهول من عالم الغيب إلى عالم الحسّ، وبالجملة فهو "أفصحُ الخلق على الإطلاق، وأبلغُ من أعجزتْ بلاغتُهُ الفصحاءَ على جهة العموم والاستغراق"(١٥٢)، ومردُّ ذلك كلّه إلى "التأييد الالهي والطبع الصافي"(١٥٣).

وصفوة القول إن الأنبياء عليهم السلام كلُّهم فصحاء اللسان، لا يفوتُ سامعهم شيء من كلامهم، ولا ينفر عن سماعه، وإن تفاوتوا في مراتب تلك الفصاحة(١٥٤)، لأن تبليغ الرسالة شأنه خطير وأمره جليل يحتاج إلى منطقٍ بليغٍ، ولسانٍ مُنطلِقٍ بالكلام(١٥٥)، ويحتاج إلى سيطرةٍ على العقول بالبيان الساحر، فالرسالات السماوية ليست في حقيقتها إلا حلقةَ وصلٍ تصل الإنسانَ بربِّه على لسان سفيرٍ أمين يجمع كلَّ صفات البلاغ المبين، من صدق القول، وحسن الإلقاء، وجمال الأسلوب، وحفظ الأمانة، والحكمة في الجدال، وقوة الشخصية، وإثارة العرض، و"سفارةٌ بين الخالق والمخلوق لا جرمَ تعتمد على البيان الخلَّابِ، والمنطق الجذَّابِ، والقولِ المتخيَّر الفاتنِ، والكلامِ العَذْبِ الذي تملِكُ به النفوسَ، وتؤسر الألباب"(١٥٦)، وبلاغة الأنبياء جاءت أوعية للمعاني الكِبار وقوالب للأفكار العِظام لا لتجارة الكلام ولا لعرض صناعة الأساليب، وحين "يجيء النبي فتجيء الحقيقة الالهية معه، في مثل بلاغة الفنّ البياني، لتكون أقوى أثراً، وأيسرَ فهماً، وأبدع تمثيلاً، وليس عليها خلافٌ في الحسّ، وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنساناً واحداً فنَّ الناس جميعاً، كما تكون البلاغة في لغةٍ بأكملها"(١٥٧).

ومؤدّى ذلك أن الرسائل الإصلاحية مهما كانت راشدة في تربية الفرد وتهذيب المجتمع، فلن يكتب لها النجاح، ولن تؤتي جهود القائمين عليها ثمارها في تحقيق السعادة، ولن تقع موقعاً حسناً في النفوس، إذا لم يرافقها منطقٌ في الكلام بليغ، ولسانٌ في القول فصيحٌ، وإذا لم يتولّ أمرها رجلٌ على درجة عالية من البيان، وطلاقة اللسان، وحلاوة العبارة، وقوة التأثير، نعم إنّ "عرض الدعوة والقضايا الإيمانية، وتوضيح التشريعات الربانية، والقوانين

السماوية، هذه التكاليف المتعددة مهمة شاقة، تتطلب بياناً واضحاً، وعَرْضاً بيّناً، لهذا لا بدّ أن يكون الداعية في غاية البيان، ومثلاً عالياً في الفصاحة، وأن يكون له امتياز على كل الفصحاء الأَبْيِنَاءِ حتى يظهر فضله عليهم، ويُعرَف مكانه بينهم، فالبيان هو الوسيلة الناجحة للإقناع، وإلزام المدعوّين الحجةَ، وحملهم على أن يصدّقوا الرسول فيما جاء به، وأن يخجلوا من تكذيبه، بعد أن تقوم عليهم الحجة، ويردهم البرهان بالفصاحة والبيان"[١٥٨]، وما سبق من تأمُّلِ مخاطباتِ الأنبياءِ مع أقوامهم في القرآن الكريم وتحليلها من الوجهة البلاغية، وفي ضوء المقامات الخارجية وملابسات الأحداث والطبائع النفسية أكّد هذه الحقيقةَ الناصعة وأثبتها بما لا يدع مجالاً للشك، وهذه الخاصية كانت من لوازم نجاح الدعوة والتبليغ، وكانت منحةً ربانيةً أوتيها كلُّ رسول تكريماً لشخصه، وتنويها بشأنه، وتأييداً لرسالته، ودعماً لدعوته.

نتائج البحث

إن البحث عن بلاغة الأنبياء في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف وفي آثار أخرى أسفر عن نتائج نسوقها على النحو الآتي:

ـ أولى الفكر الإنساني منذ زمنٍ قديم عنايةً فائقةً بدور البيان في التعبير عن الذات، وفي الدفاع عن الحقوق، وفي المفاخرات والمنافرات، وكانت الحضارة اليونانية والإغريقية رائدة في التنبيه على دور البيان الرفيع، فوظَّفه في الفلسفة، وفي المرافعات القضائية، وفي المناظرات، وفي الأدب والفن، توظيفاً دقيقاً ينبئ عن الوعي العميق بدوره في طريقة التفكير وقولبة الحياة في نمط من العيش معين.

ـ بلغ اعتزاز العرب بفصاحتها وبلاغتها حدّاً لا تعترف بغيرها من الأمم القاصرة عن البيان، بل جعلتْ حسنَ البيانِ شرطاً من شروط السيادة والولاية في القبيلة، وإنما فرحوا بنبوغ الشاعر فيها، لأنه يرهب عدوّها بسلطان بلاغته، ويحمي عرضها عن الهجاء المقذع، ورفعوا مقام الخطيب في القبيلة عليّاً، لأنَّه لسانها الناطق، وحكيمها الصائب، ورائدها البصير، وقاضيها العادل، يفرض إرادته بقوة حجته، ويرغم الجمهور على الاستماع إلى خطبته بحلاوة لسانه.

ـ دفع الإسلام كلَّ الوسائل التي من شأنها ترويض اللسان على تحسينِ الكلام وارتقاءِ الأسلوب خطواتٍ إلى الأمام، ذلك أن القرآن الكريم كان معجزة لغوية أدبية

جماليـة، والحـديث الشـريف يتسـم بطـابع البلاغـة العليـا وسـمة الشـجاعة الأدبيـة فـي طريقـة الأداء، وفخامـة المعنـى، أَضِـفْ إلـى ذلـك أن الإسـلام جعـل الخطابـة بصـيغتها البلاغيـة الرائعـة عنصـراً مـن عناصـر نشـر الـدعوة الإسـلامية فـي كـلّ أصـقاع العـالم، وفرضها على المسلمين في الجمعة والأعياد والمناسبات.

ـ يُطالـب القـرآن الكـريم فـي إطـار الحكمـة والموعظـة الحسـنة والقـول اللـيّن والكـلام البليـغ الـدعاةَ بارتقـاء مسـتوى أدائهـم اللغـوي والبيـاني حتـى يوضّـحوا الحـقّ جليّـاً، ويـردّوا على شبهات الأعداء قويّاً، ويستثيروا النفوسَ إلى اعتناق الحقّ رضيّاً.

ـ علـى الـدعاة أن يُكثِـروا مـن مطالعـة الكتـب الأدبيـة ذات الأسـلوب الرصـين، وأن يعكفـوا علـى قـراءة كـلام البلغـاء وأقـوال الفصـحاء، لكـي يتعرَّفـوا علـى أسـرار البلاغـة وأسـباب التـأثير، وتجـودَ قـريحتهم بأفصـح الكلمـات، ويسـيلَ لسـانهم بأحسـن العبـارات، ويفيضَ قلمهم بأجود المقالات.

ـ تفـرض متطلبـات الـدعوة علـى الداعيـة الاسـلامية فـي زمـنٍ يسـتغلّ دعـاة الضـلال وأنصـار الإباحيـة زخـرفَ القـول غـروراً تفـرض عليـه أن يُعْنَـى بالثقافـة اللغويـة والأدبيـة حتـى يكـون صـحيحَ الفهـم، فصـيح اللسـان، عـذْبَ البيـان، قـويَّ البرهـان، سـاطع الحجّـة، مشـبوب العاطفـة، مهـذّبَ الحواشـي، رقيـق الإحسـاس، يخطـف الأبصـار بـوحي إشاراته، ويخلب الفؤادَ بسحر منطقه.

ـ أشـار القـرآن الكـريم فـي كثيـر مـن آياتـه صـريحاً وضـمناً إلـى بلاغـة الأنبيـاء وقـدرتهم البيانيـة العاليـة، فـإبراهيم عليـه السـلام آتـاه الله الحجـة القائمـة علـى قومـه، وكـان قـديراً علـى المنـاظرة، عارفـاً بطـرق إلـزام الخصـم وتبكيتـه، ونـوح عليـه السـلام أطـال فـي مجادلـة قومـه بـالحق بأسـلوبٍ حكـيمٍ وبيـانٍ رفيـعٍ حتـى ضـاقوا بطـول نفسـه وقـوة حجتـه فـي الجـدال، فـاعترفوا بقدرتـه فـي هـذا المجـال، وموسـى عليـه السـلام تضـرَّع إلـى الله لإطـلاق لسـانه مـن حُبْسـته، وطلـب مـن ربّـه أن يرسـل معـه أخـاه هـارون وزيـراً إلـى فرعـون، لأنَّـه أفصـح منـه لسـاناً، وأنصـع منـه بيانـاً، وأُطلِـق علـى شـعيب عليـه السـلام لقـبُ خطيـب الأنبيـاء لقـوة خطابـه، وقدرتـه الارتجاليـة، وتنـوّع حججـه، ونصـاعة بيانـه، وحسـن مراجعتـه قومـه بلسـان فصـيح وقـول بليـغ، ومـن تمـام المنّـة علـى داود عليـه السـلام أن الله آتـاه فصـلَ الخطـاب، وهـو القـدرة البيانيـة علـى حسـم النـزاع، او إيجـاز

التعبير في حلّ الإشكال، وفي مزاميره آداب رفيعة في مقاطع صوتية متماثلة جعلتها تصلح للتطريب والتغني متناغمة مع صدى الجبال وتغاريد الطيور في التسبيح، وفي تعاليم عيسى لتلاميذه حِكُمٌ بالغةٌ في إرسال المثلِ من أجل الإقناع عن طريق التصوير والتجسيد.

ـ شهِد الله لنبيه محمد ﷺ بقوة بلاغته وسموّها في القرآن الكريم، واعترف بذلك نفسه ممتناً لربّه شاكراً على ما وهبه من جوامع الكَلِم، وما خصَّ به من روائع الحِكَم، وتعجبَّ مَنْ حوله من فصاحته وبلاغته، لأنهم أصحابُ فصاحةٍ وأمةُ بلاغةٍ يقدرون البيان الرفيع حقَّ قدره إذا جاء في معدنه، والبليغ يدرك من هو أرفع منه بلاغة منه وأفصح منه لساناً، وشهِدَ أئمةُ الدين وفرسانُ الأدب بأن الرسول ﷺ كان أفصحَ العربِ قاطبةً، وأطبعَهم على البيان الساحر من غير تكلف ولا تصنّع، وكانوا يُصدِرون في تقييمهم من الاحتكام إلى منطق بلغاء العرب وشعرائهم في المنظوم والمنثور.

Abstract

The eloquence of the Prophets

Keywords: rhetoric, prophets, eloquence

a . M. Dr.. Saleh Mullah Aziz

Erbil / Salahuddin University - Collegeof Education

This study shows that the prophets peace be upon them had a very high level of eloquence and fluency when they called for Allah. Accordingly, what has the holy Qur'an displayed in terms of their conversation (dialogue) with their people and their being praised by Allah the Almighty in this respect besides what has been referred to by the gracious prophet in his hadiths in this regard are depended on.

This paper is composed of three parts the first of which deals with the magic of the diction in the humane thought to affirm that the interest in the diction issue is found profoundly in the various humane cultures whereas the second part points out the significance

of the eloquence in the process of calling for Allah as well as its psychological dimensions, its social traces, and its legitimate rooting. Then the third section which is entitled "Landmarks of the Prophets' Eloquence" aims at highlighting the aspects of such eloquence via some verses of the holy Qur'an which refer to its eloquence covert (i.e. explicit or implicit) in addition to quoting the diligence of the interpreters and the commentaries of the scholars on the qur'anic text for the sake of support and documentation.

الهوامش

(١) وحي القلم، الرافعي: ٨٨/٢.

(٢) الخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الامتاع، المستغانمي: ٢١ . ٢٢.

(٣) الخطابة أصولها تأريخها في أزهر عصورها عند العرب، أبو زهرة: ١٢ . ١٣.

(٤) القديم والحديث، محمد كرد علي: ١٣٧ . ١٣٨.

(٥) خطباء صنعوا التاريخ: ٧.

(٦) الخطابة أصولها تأريخها في أزهر عصورها عند العرب: ١٣.

(٧) النقد الأدبي، و. ومزات، ك. بروكس: ١١٠/١.

(٨) المصدر نفسه: ١٠٢/١.

(٩) ينظر: البيان والتبيين: ٨٨/١.

(١٠) المصدر نفسه: ١٢/٣ . ١٤. الغثارة: الحمق والجهل. والخطل: الخطأ. والدلّ: الهدى والسمت. والدرّية: إحدى اللغات الفارسية القديمة. وكاروند: مكوّن من كلمتين فارسيتين: (كار) ومعناها الصناعة، و(وند) بمعنى المديح والثناء، والمثلات: جمع المثلة، بمعنى العقوبة والتنكيل.

(١١) فن الخطابة، ديل كارنيجي: ٧.

(١٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده: ٨٩/١.

(١٣) خطبة الجمعة أهميتها، تأثيرها، واقعها، كيفية النهوض بها، محمد عبد اللطيف الرفاعي: ٦٥.

(١٤) البيان والتبيين: ١٨٤/١.

(١٥) المصدر نفسه: ٥٦/١.

[١٦] خزانة الأدب ولبّ لُباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي: ٣/٩٠.

[١٧] مريم: ٩٧.

[١٨] الأحزاب: ١٩.

[١٩] البقرة: ٢٠٤.

[٢٠] المنافقون: ٤.

[٢١] البرهان في وجوه البيان، اسحاق بن وهب الكاتب: ٢٢٣.

[٢٢] الزخرف: ١٨.

[٢٣] البيان والتبيين: ٤/٢٧ . ٢٨.

[٢٤] المصدر نفسه: ٣/٢٨ . ٢٩.

[٢٥] المقابسات، التوحيدي: ٢٠٠، الحَرْفُ: الميلُ عن طرق الكسب وقلة المال وضيق الرزق، وهو ما يُرمَى به أكثر الأدباء، والوصال: هو أن يصل نهاره بليله جوعاً، والطي: هو أن يبيت طاوياً على الجوع ويصبح غرثاناً.

[٢٦] النساء: ٦٣.

[٢٧] طه: ٤٤.

[٢٨] البقرة: ٨٣.

[٢٩] الأحزاب: ٧٠.

[٣٠] فيض القدير شرح الجامع الصغير: ١/٣٧٣.

[٣١] صحيح البخاري: رقم الحديث ٥١٤٦: ١٢٩٢.

[٣٢] شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي الزرقاني: ٤/٥١٨.

[٣٣] اللغة بين البلاغة والأسلوبية، مصطفى ناصف: ١١.

[٣٤] دراسة في الأدب والفن، حنا نمر: ٨ . ١٠.

[٣٥] في جمالية الكلمة، حسين جمعة: ١٩.

[٣٦] أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، عبد الحليم حفني: ١٧.

[٣٧] مملكة البيان، عائض القرني: ١٧.

[٣٨] المصدر نفسه: ٢٣.

[٣٩] في جمالية الكلمة: ٧.

[٤٠] الدعوة إلى الله، الواعي: ٢٤٢.

[٤١] دراسات إسلامية، سيد قطب: ١٤٠.

[٤٢] دفاع عن البلاغة، الزيّات: ٢٤.

[٤٣] المصدر نفسه: ٢٠ ـ ٢١.

(٤٤) بلاغة الخطاب الاقناعي، حسن المودن: ٧.

(٤٥) بلاغة الإقتاع في المناظرة، عبد اللطيف عادل: ١٦.

(٤٦) بلاغة الخطاب الإقناعي: ١٣.

(٤٧) التفكير البلاغي عند العرب، حمّادي صمود: ١٨٠.

(٤٨) البيان والتبيين: ١/ ٨٧ .

(٤٩) النحل: ١٢٥.

(٥٠) مبادئ في الأدب والدعوة، حبنكة الميداني: ٤٦.

(٥١) فقه الدعوة إلى الله، حبنكة الميداني: ٦١٢/١.

(٥٢) سلسلة مدرسة الدعاة، عبد الله ناصح علوان: ٤٢٤/١، وينظر: الخطابة، أبو زهرة: ٥٤ ٥٩.

(٥٣) ثقافة الداعية، القرضاوي: ٩٨ .٩٩.

(٥٤) مجموع رسائل العين، الراشد: ٧٢.

(٥٥) فقه الدعوة إلى الله، حبنكة الميداني: ٣٦٤/١.

(٥٦) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، محمد الغزالي: ٧٠ . ٧١.

(٥٧) من كلام محمد الرابع الحسني الندوي في تقديمه لكتاب: أدب الصحوة الإسلامية: ٨ .٩.

(٥٨) النفس في تحريكها الحياة، الراشد: ١٠٥.

(٥٩) المصدر نفسه: ١١٦.

(٦٠) المتحدّث الجيّد مفاهيم وآليات، بكّار: ٦.

(٦١) ابراهيم: ٤.

(٦٢) فقه الدعوة إلى الله: ٥٢٤/٢.

(٦٣) هود: ٣٢.

(٦٤) المؤمنون: ٢٤ . ٢٥.

(٦٥) الشعراء: ١١٦.

(٦٦) هود: ٣٢.

(٦٧) أدب الحوار في الإسلام، طنطاوي: ١٤٣.

(٦٨) هود: ٣٣.

(٦٩) قصص القرآن، جاد المولى، والبجاوي، أبو الفضل ابراهيم، وشحاتة: ١٦.

(٧٠) الأعراف: ٦٥ . ٦٨.

(٧١) المصدر نفسه: ١٢٧.

(٧٢) الأنعام: ٧٣ . ٨٣.

[٧٣] مريم: ٤١. ٤٥.

[٧٤] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير: ٢٩٧/٢ .٢٩٩.

[٧٥] البيان والتبيين: ٨٨/١.

[٧٦] أدب الحوار في الإسلام، طنطاوي: ١٤٣.

[٧٧] قصص الأنبياء، ابن كثير: ١٢١.

[٧٨] فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٦/ ٣٧٥.

[٧٩] البيان والتبيين: ٢٩٢/٣.

[٨٠] المستدرك على الصحيحين، الحاكم، رقم الحديث ٤٠٧١: ٦٢٠/٢.

[٨١] التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ٣١٩/٥.

[٨٢] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ٦١، وينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الزحيلي: ٢٩٢/٨.

[٨٣] البحر المحيط: ١٨٧/١٠.

[٨٤] التحرير والتنوير: ٣١٨/١١.

[٨٥] هود: ٨٣ . ٩٣.

[٨٦] أدب الحوار في الإسلام، طنطاوي: ١٦٣.

[٨٧] البحر المحيط: ٣٤٠/١٢.

[٨٨] م. ن: ٣٤٥/١٢.

[٨٩] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، الفاسي: ٢/ ٥٥٢.

[٩٠] القديم والحديث: ١١٢.

[٩١] الشعراء: ١٢ ـ ١٣.

[٩٢] الزخرف: ٥٢.

[٩٣] في ظلال القرآن، سيد قطب: ٢٥٨٩/٥.

[٩٤] التحرير والتنوير: ١٩/ ١٢١.

[٩٥] طه: ٢٥ ـ ٢٨.

[٩٦] قصص القرآن، جاد المولى، والبجاوي، أبو الفضل ابراهيم، وشحاتة: ١٢١.

[٩٧] تفسير البيضاوي: ٢٦/٤.

[٩٨] الكشاف، الزمخشري: ٥٦/٣.

[٩٩] من بلاغة الحديث الشريف، لاشين: ١٥.

[١٠٠] التحرير والتنوير: ١٦/ ١١٣ ـ ١١٤.

[١٠١] القصص:٣٤.

(١٠٢) تفسير القرآن العظيم: ٢٧٨/٥.

(١٠٣) البحر المحيط : ٢٦٨/١٦.

(١٠٤) التحرير والتنوير: ١١٤/١٦ ـ ١١٥.

(١٠٥) ينظر: تجربتي في ربع قرن، العريفي: ٢٥ ـ ٢٧.

(١٠٦) طه: ٣٦.

(١٠٧) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم: ١٨.

(١٠٨) الكشّاف: ٣٧٦/٣، ولدينا من الوقائع الأدبية قديماً وحديثاً ما هو قريب من هذا، ففي القديم يروي الصولي أن الشاعر اذا كان لا يتقن الإنشاد استعان براويته الذي يُحسِن الإلقاء ويُجيد الإنشاد، يقول الصولي: "حدَّثَني أحمد بن إبراهيم قال: حدَّثَني محمد بن رَوْح الكِلابي قال: نزل عليَّ أبو تمام الطائي، فحدَّثَني أنه امتدح المعتصمَ بِسُرَّ مَنْ رأى بعد فتح عمورية، فذكره ابن أبي دؤاد للمعتصم، فقال له: أليس الذي أنشدنا بالمَصِيَصة الأجشَّ الَّصوتِ؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن معه راويةً حَسَنَ النَّشيدِ، فأَذِنَ له، فأنشده راويتُه مدحَهُ له، ولم يذكر القصيدةَ، فأمر له بدراهمَ كثيرةٍ"، وفي العصر الحديث تذكر المصادر الأدبية أنّ أمير الشعراء أحمد شوقي كان يستعين بشخص آخر ليلقي عنه شعره في المحافل نيابةً عنه مع وجوده، لا لشيء إلا لأن هذا الشخص كان أبعدَ منه صوتاً، وأبرع منه إلقاءً، وأقوى منه إنشاداً، وأشدّ منه تأثيراً في الجمهور. ينظر على الترتيب: أخبار أبي تمام، الصولي: ١٤٣ . ١٤٤، وأحمد شوقي، زكي مبارك: ٣٠٤، ٣١٨. الأجشَّ: مَنْ في صوتِه شدّةٌ حتى صار كالبُحَّةِ.

(١٠٩) القصص:٣٤.

(١١٠) الشعراء: ١٣.

(١١١) البيان والتبيين: ٧/١.

(١١٢) النازعات: ١٧ . ١٩.

(١١٣) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، حبنكة الميداني: ٧٥/١.

(١١٤) ص: ٢٠.

(١١٥) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، طنطاوي: ١٤٤/١٢. وينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي: ٥٨/٤، وتفسير البيضاوي: ٨٧٥، والبحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي: ٢٤٨/١٨، وتفسير أبي السعود: ١٥٤/٧.

(١١٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٥٠/١٨، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم: ١٤٤/١٢.

(١١٧) تفسير أبي السعود: ١٥٤/٧

(١١٨) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الرازي: ٤٤٥/١٣ ـ ٤٤٦.

[١١٩] المستدرك على الصحيحين، الحاكم، رقم الحديث ٤٢٧٤: ٣/١٠. النزر: القليل، والهذر: الهذيان، والمعنى: ليس بقليلٍ يدلّ على عِيٍّ، ولا كثير فاسد، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ٢/٧٢٩.

[١٢٠] البحر المحيط: ١٨/٢٤٨.

[١٢١] النبأ: ١٧.

[١٢٢] التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٣/١٢٩ . ١٣٠.

[١٢٣] صحيح مسلم، رقم الحديث ٦٨٥٨: ١١١٣، وسنن أبي داود، رقم الحديث ١٥١٥: ٣٥٩، ولفظهما: (إنّه ليُغَانُ على قلبي، وإنّي لأَستَغْفِرُ اللهَ في اليوم مئة مرةٍ)، وفي سنن ابي داود: في كلِّ يومٍ.

[١٢٤] رواه العسكري في الأمثال مرسلاً بهذا اللفظ، ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني: ١٠/٢٩٨، وخرَّجه أبو يعلى الموصلي بلفظ: "إنِّي أُوتيتُ جوامعَ الكَلِمِ وخواتمَهُ، واختُصِرَ لي الكلام اختصاراً"، وخرَّجَهُ الدار قطنيُّ بلفظ "أُعطيتُ جوامعَ الكَلِمِ، واختُصِرَ لي الحَديثُ اختصاراً". ينظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي: ١/٥٤.

[١٢٥] التحرير والتنوير: ٢٣/ ١٣٠.

[١٢٦] البيان والتبيين: ١/٢٠٠ .٢٠١. الحزّ: القطع.

[١٢٧] بلاغة الخطاب الإقناعي: ١٨ . ١٩.

[١٢٨] سنن النسَّائي، رقم الحديث ١٠٢١: ٣٣٤.

[١٢٩] مبادئ في الأدب والدعوة: ٤٣.

[١٣٠] النمل: ١٦.

[١٣١] البيان والتبيين: ٤/٣١.

[١٣٢] مبادئ في الأدب والدعوة، حبنكة الميداني: ٤٣.

[١٣٣] إنجيل لوقا، الإصحاح الثامن: ٩٦.

[١٣٤] المصدر نفسه: ٩٧

[١٣٥] مبادئ في الأدب والدعوة، حبنكة الميداني: ٤٤.

[١٣٦] صحيح البخاري، رقم الحديث ٧٩: ٢١٣، وصحيح مسلم، رقم الحديث ٥٩٥٣: ٩٦٤.

[١٣٧] تاريخ الأدب العربي، الزيّات: ١٠١ .١٠٢.

[١٣٨] النجم: ٣ .٤.

[١٣٩] النساء: ١١٣.

[١٤٠] النساء: ٦٣.

[١٤١] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ٥/٣٧٣ .٣٧٤.

[١٤٢] تفسير المنار، محمد عبده: ١٨٧/٥.

[١٤٣] رواه مسلم، رقم الحديث ١١٧١: ٢٤٢.

[١٤٤] شرح السنة ، البغوي: ٢٠٢/٤.

[١٤٥] صحيح مسلم، رقم الحديث ٦٩٦٦: ١١٢٩. عافسنا: عالجْنَا معايشَنا وحظوظَنا. والضَّيْعَاتُ: جمع ضيعة، وهي معاش الرجل من مال أو حرفة أو صناعة.

[١٤٦] سنن أبي داود، رقم الحديث ٤٦٠٧: ٩٧٢.

[١٤٧] صحيح البخاري، رقم الحديث ٢٨٤٢: ٧٦٥.

[١٤٨] ص: ٨٦.

[١٤٩] البيان والتبيين: ١٦/٢ .١٨. التقعيب: التقعير، وهو أن يتكلَّم بأقصى قعر فمه. والفَلْج: الفوز والظفر. الهَمْز: العيب في الغيبة. واللمز: العيب في الحضرة. وحصر: عيَّ في كلامه.

[١٥٠] الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: ١١٦.

[١٥١] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي: ١٩٤.

[١٥٢] فيض الانشراح، ابن الطيب: ٤٤٦/١.

[١٥٣] ضوء الصباح على ترجيز المصباح، الضرير المراكشي: ١٣.

[١٥٤] روح المعاني، الآلوسي: ٢٨٨/١٦

[١٥٥] تفسير الشعراوي : ٩٢٥٨/١٥.

[١٥٦] بلاغة الرسول α وأثرها في لغة العرب، المسلوت: ٦٣٧. وينظر: البلاغة النبوية وأثرها في النفوس، جاد: ١٥٠، والأدب الإسلامي . المفهوم والقضية، صبح وشرف، وخفاجي: ١١٨.

[١٥٧] وحي القلم: ٢/ ٢٧٦.

[١٥٨] من بلاغة الحديث الشريف: ١٤.

المصادر والمراجع

- الأدب الإسلامي المفهوم والقضية: د.علي علي صبح، د. عبد العزيز شرف، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- أدب الحوار في الإسلام: د. محمد سيد طنطاوي، الأزهر الشريف، سلسلة البحوث الاسلامية، ط٢، ٢٠٠٧.
- أدب الصحوة الإسلامية: محمد واضح رشيد الحسني الندوي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.
- أحمد شوقي: د. زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨.

- أخبار أبي تمام: أبو بكر محمد بن يحيي الصولي (٣٣٥هـ)، تحقيق: خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزام، نظير الاسلام الهندي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٨٠.
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني (٩٢٣هـ)، المطبعة الأميرية الكبرى، مصر، ط ٧، ١٣٢٣ هـ.
- أسلوب المحاورة في القرآن الكريم: د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٩٥.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي (١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ٢٠٠٣.
- الإنجيل، العهد الجديد: إنجيل لوقا، الإصحاح الثامن، د.ت.
- البحر المحيط: أبو حيّان الأندلسي (٧٤٥هـ)، تحقيق: عمّار ريحاوي، ومحمد معتز كريم الدين، دار الرسالة العالمية، ط١، ٢٠١٥.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد الفاسي (١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، ١٤١٩ هـ.
- البرهان في وجوه البيان: اسحاق بن ابراهيم وهب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، ط١، بغداد، ١٩٦٧.
- بلاغة الإقناع في المناظرة: د. عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، بيروت ـ لبنان، ط١، ٢٠١٣.
- بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب: د. حسن المودن، كنوز المعرفة، الأردن، ط١، ٢٠١٤.
- بلاغة الرسول ﷺ وأثرها في لغة العرب: عبد الحميد محمود المسلوت، مجلة الأزهر، المجلد العشرون، العدد ٧، رجب ١٣٦٨هـ.
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠٠٧.
- البلاغة النبوية وأثرها في النفوس: د. حسن جاد، مجلة البحوث الاسلامية، المجلد ٥، العدد ٥، محرم، ١٤٠٠هـ.

- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي بالقاهرة، ط٣، د. ت.
- تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيَّات، منشورات دار الحكمة، دمشق، بيروت، د.ت.
- تجربتي في ربع قرن: د. محمد عبد الرحمن العريفي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠١٦.
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ =١٩٧٣م)، مؤسسة التاريخ، بيروت . لبنان، ط١، د.ت.
- تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود محمد بن محمد العمادي (٩٨٢هـ)، تحقيق: خالد عبد الغني المحفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠١٠.
- تفسير البيضاوي المسمَّى أنوار التنزيل وأسرار التأويل: أبو سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي (٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين الأصفر، دار المعرفة . بيروت، ط١، ٢٠١٣.
- تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي (١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم، مصر، ١٩٩٧.
- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير (٧٧٤هـ)، تحقيق: د. حكمت بشير ياسين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣١هـ.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي (٦٠٤هـ)، تحقيق: سيد عمران، دار الحديث، القاهرة، ٢٠١٢.
- تفسير المنار: محمد عبده (١٣٢٣هـ)، جمعه وضبطه: محمد رشيد رضا (١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د. وهبة مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ.

- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، الفجالة . القاهرة، ط١، ١٩٩٨.
- التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة): د. حمّادي صمود، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت . لبنان، ط٣، ٢٠١٠.
- ثقافة الداعية: د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٠، ١٩٩٦.
- جامع العلوم والحِكَم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكِلَم: أبو الفرج عبد الرحمن شهاب الدين الشهير بابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت . لبنان، ط ١٠، ٢٠١٣.
- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، الرسالة العالمية، ط١، ٢٠١٢.
- خزانة الأدب ولبّ لُباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي (١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد اسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٤، ١٩٩٧.
- الخطابة أصولها، تأريخها في أزهر عصورها عند العرب: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٨٠.
- خطباء صنعوا التاريخ: أحمد أنور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٩.
- خطبة الجمعة أهميتها، تأثيرها، واقعها، كيفية النهوض بها، محمد عبد اللطيف الرفاعي، جروس، طرابلس . لبنان، ط١، ١٩٩٥.
- الخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع: د. محمد صافي المستغانمي، دار ابن كثير، ط١، سوريا، لبنان، ٢٠١٧.
- . دراسات إسلامية: سيد قطب، دار الشروق، ط١١، القاهرة، ٢٠٠٦.
- . دراسة في الأدب والفن: حنا نمر، المؤسسة الجامعية، ط١، ١٩٨٢.
- . الدعوة إلى الله: توفيق يوسف الواعي، دار اليقين، مصر، ط٢، ١٩٩٥.
- . دفاع عن البلاغة: أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة، ١٩٤٥.
- ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود بن عبد الله الآلوسي (١٢٧٠هـ)، تحقيق: فادي المغربي، سارية الشهواني، عبد المنعم حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠١٠.

- . سلسلة مدرسة الدعاة: عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط٧، ٢٠١٠.
- سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث الأزديّ السجستانيّ (٢٧٥هـ)، اعتنى به: ياسر حسن، وعز الدين ضلي، وعماد الطيّار، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠١٣.
- سنن النَّسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسَّائي (٣٠٣هـ)، اعتنى به: ياسر حسن، وعزالدين ضلي، وعماد الطيّار، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠١٥.
- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: محمد بن عبد الباقي الزرقاني (١١٢٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، د.ت.
- شرح السنة: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويس، المكتب الاسلامي، دمشق، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض (٥٤٤هـ)، تحقيق: عبده علي كوشك، دار الفيحاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦.
- صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، اعتنى به: ياسر حسن، وعزالدين ضلي، وعماد الطيّار، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت . لبنان، ط٣، ٢٠١٥.
- صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القشيريِّ النَّيسابوريّ (٢٦١هـ)، اعتنى به: ياسر حسن، وعزالدين ضلي، وعماد الطيّار، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠١٤.
- ضوء الصباح على ترجيز المصباح: محمد بن عبد الرحمن المراكشي الضرير (٨٠٧هـ)، مخطوط بمكتبة الأسكوريال برقم ٢١٩، وعنه نسخة مصورة في مركز جمعية الماجد رقم ٥٠٦.
- العمدة في صناعة الشعر ونقده: ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ)، تحقيق: د. النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ٢٠٠٠.
- فن الخطابة: ديل كارنيجي، دار السلام، الوادي (الجزائر)، د. ت.

- فيض القدير شرح الجامع الصغير: محمد عبد الرؤوف المناوي (١٠٢١هـ)، تخريج الأحاديث: د. أحمد نصر الله، دار الحديث، ٢٠١٠.
- فيض نشر الإنشراح من روض طيِّ الاقتراح: ابن الطيّب الفاسي (١١٧٠هـ)، تحقيق: د. محمود يوسف فجّال، دار البحوث للدراسات الاسلامية وإحياء التراث، الامارات العربية المتحدة، دبي، ط١، ٢٠٠٠.
- في جمالية الكلمة: أ. د. حسين جمعة، دار رسلان، دمشق ـ سوريا، ٢٠١١.
- في ظلال القرآن: سيد قطب (١٩٦٦م)، دار الشروق، ط٩، ١٩٨٠.
- فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق ـ سوريا، ط٣، ٢٠١٠.
- القديم والحديث: محمد كرد علي، المطبعة الرحمانية بمصر، ط١، ١٩٢٥.
- قصص الأنبياء: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التأليف، القاهرة، ط ١، ١٩٦٨.
- قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، والسيّد شحاتة، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، تحقيق: الشربيني شريرة، دار الحديث، القاهرة، ٢٠١٢.
- اللغة بين البلاغة والأسلوبية: د. مصطفى ناصف، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٨٩.
- مبادئ في الأدب والدعوة: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم ـ دمشق، ط٢، ١٩٨٧.
- المتحدّث الجيّد مفاهيم وآليات: د. عبد الكريم بكّار، دار السلام، القاهرة، ط٢، ٢٠١٢.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير (٦٣٧هـ)، منشورات دار الرفاعي بالرياض، ط٢، ١٩٨٣.
- مجموعة رسائل العين: محمد أحمد الراشد، دار البشير للثقافة والعلوم، ط١، ٢٠٠٤.

- المستدرك على الصحيحين: الحاكم محمد بن عبد الله (٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى قادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت . لبنان، ط١، ١٩٩٠.
- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية: محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٩، ٢٠٠٨.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.
- المقابسات: أبو حيان التوحيدي (٤٠٣هـ)، شرح وتحقيق: حسن السندوبي، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٦.
- . مملكة البيان: د. عائض القرني، دار ابن حزم، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠١١.
- من بلاغة الحديث الشريف: د. عبد الفتاح لاشين، عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٨٢.
- النفس في تحريكها الحياة: محمد أحمد الراشد، دار الأمة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط٢، ٢٠١٠.
- النقد الأدبي: و. ومزات، ك. بروكس. ترجمة: حسام الخطيب ومحيي الدين صبحي، دمشق، ١٩٧٣.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير الجزري (٦٠٦هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت . لبنان، ط٤، ٢٠١١.
- وحي القلم: مصطفى صادق الرافعي، بعناية: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٥.